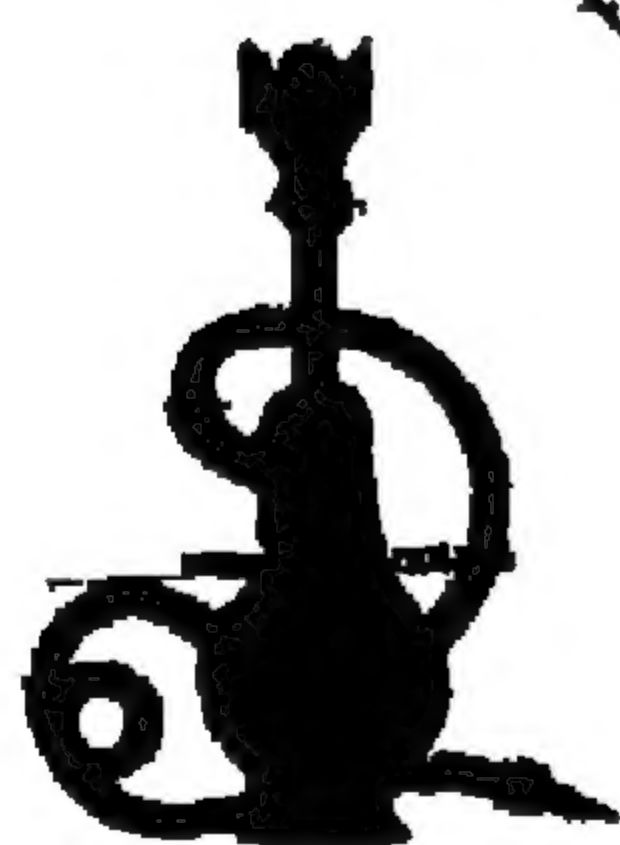




آرشركونان دوییل

عصایه الأربعة

شارلوك هولمز



مطبعة
الكتاب

مطبعة
الكتاب

THE SIGN OF FOUR

by

SIR ARTHUR CONAN DOYLE
(SHERLOCK HOLMES)

ترجمة
سمية فلو عبود

ARABIC EDITION 1993
© SAWT AL-NAS
P.O.Box:7038 - Limassol
CYPRUS
P.O.Box:113/5796 - Beirut
LEBANON

ISBN 1-85513-149-8

جميع الحقوق العربية محفوظة



الطبعة الأولى، أيار / مايو ١٩٩٣
الخلاف، تصميم رملة شناعة
رسوم شيفورن كوريفان

المحتويات

٩	١ - علم الاستنتاج
٢٣	٢ - عرض القضية
٣٣	٣ - بحثاً عن حل
٤٣	٤ - حكاية الرجل الأملع
٥٩	٥ - مأساة بونديتشري لودج
٧١	٦ - شارلوك هولمز يقدم عرضاً
٨٧	٧ - حادثة البرميل
١٠٥	٨ - فرقة بايكر ستريت غير النظامية
١٢١	٩ - الحلقة المفقودة
١٣٩	١٠ - نهاية ساكن الجزيرة
١٥٣	١١ - كنز آغرا العظيم
١٦٣	١٢ - قصة جوناثان سمول الغريبة

- ١ -

علم الاستنتاج

تناول شرلوك هولمز الزجاجة عن رفّ المدفأة، وحقنة المخدر من محفظته الجلدية الفاخرة وبدأ يعد الإبرة الدقيقة بأصابعه الطويلة البيضاء والمتوترة ثم رفع طرف كم قميصه وتأمل لبعض الوقت في ساعده القويّ ومعصمه حيث تنتشر الثقوب العديدة وبعد أمعان شديد اكتشف موقعا صالحا فغرز رأس الإبرة الحاد وضغط على الكبّاس الصغير، ثم ارتاح في مقعده المخمليّ وهو يطلق تنهيدة ارتياح طويلة.

منذ شهور عديدة وأنا أشاهد هذه العملية ثلاث مرات في اليوم، لكن الألفة على مشاهدتها لم تحملني على القبول بها، بل على العكس من ذلك، كنت أزداد تضايقا من هذا المنظر يوماً بعد يوم وكان ضميري يؤنبني ليلاً لأنني كنت أفقد الشجاعة على الاحتجاج العلني. ومرة بعد أخرى كنت أنوي أن أبوح بما في قلبي حول هذا الموضوع؛ لكنني وجدت في سلوك رفيقي البارد واللامبالي ما يجعله آخر رجل يجرؤ المرء على مفاتحته، في موضوع يمسّ حرية التصرف. ذلك أن قدراته العظيمة، وأسلوبه الاستاذي، واختباري لمزاياه العديدة والرائعة، كانت تجعلني أخجل وأتردد في معارضته. لكنني في تلك الأمسية، وذلك إما بفضل المشروب الذي تناولته

مع الغداء أو لغضبي المتزايد الناتج عن التفكير بتصرفاته، شعرت
فجأة انني لم أعد أحتمل الأمر.

سألته «ماذا تناولت اليوم، المورفين أم الكوكايين؟».

رفع عينيه بفتور عن المجلد القديم المطبوع بالحرف العريض،
وقال: «إنه الكوكايين. محلول بنسبة سبعة في المئة. هل ترغب في
تجربته؟».

أجبت به بفضفاضة: «لا، أبداً، إنني لم أتعاف بعد من حملة
أفغانستان، ولا أنوي أن أضيف إلى خالتي مزيداً من التوتر».

ابتسم لعنف الإجابة وقال: «ربما تكون على حق، يا واتسون،
أعتقد أن تأثيرها (المخدرات) على الجسم سيء. لكنني أجدها مثيرة
للتعالي ومنقيّة للعقل لدرجة أن آثارها الجانبية تصبح أموراً بلا
أهمية».

قلت بصدق: «لكن عليك أن تفكر في الأمور! إنته للخرساة! قد
ينشط عقلك وتستيقظ حواسك، كما تقول، لكن هذه العملية مَرَضِيَّة
وتؤدي إلى تغير متزايد في الأنسجة وقد تترك في النهاية ضعفاً دائماً.
أنت تعرف أيضاً ردة الفعل العصبية التي تعاني منها. بالتأكيد لا
يستحق الأمر كل هذا العناء. لماذا، ومن أجل لذة عابرة، تجازف
بقدراتك الهائلة التي وهبَتها؟ تذكر انني لا أخاطبك كزميل فقط بل
كطبيب يتحدث إلى شخص يعتبر نفسه مسؤولاً عن صحته».

لم يبد متضايقاً، بل، على العكس من ذلك، جمع يديه وألقى
بمرفقيه على ذراعي المقعد، كشخص يستمتع بالحديث ثم قال:
«عقلي يرفض حالة الركود. أعطني مشاكل، أعطني عملاً، أعطني

الكتابة بالشفيرة الأكثر غموضاً، والتحليل الأكثر تعقيداً، لأشعر
انني في وضع طبيعي. إنني أشمئز من الروتين الممل وأتوق إلى
النشاط العقلاني لذلك اخترت مهنتي المتميزة، أو بالأحرى
أوجدتها، لأنني الوحيد الذي أمارسها في العالم»

قلت وأنا أرفع حاجبي: «المفتش الوحيد الذي ليس موظفاً؟»
أجابني قائلاً: «المفتش المستشار الوحيد الذي ليس موظفاً،
انني أقوم مقام أعلى وأهم محكمة استئناف في مجال الاستقصاء.
حين يصبح «غريغسون» أو «ليسترايد» أو «أتلني جونز» عاجزين
عن فهم موضوع ما - وهذا بالمناسبة ما يحدث غالباً - يوضع الأمر
أمامي. أقوم بفحص المعطيات كخبير، وأدلي برأيي كرجل
اختصاص. وأنا لا أطالب بالثناء على عملي هذا. لا يظهر اسمي في
أية صحيفة. العمل نفسه، والسعادة في وجود مجال لقدراتي
الخاصة، هما أهم مكافأة لي. وأنت بنفسك قد تعرفت إلى اسلوبى
في العمل في قضية (جيفرسون هوب)».

قلت بحرارة: «أجل، بالفعل لم يسبق لأمر ان أذهلني إلى هذا
الحد. لقد دوّنت الأحداث في كتيب صغير، ووضعت له عنواناً
غريباً: (دراسة في اللون القرمزي)».

هز رأسه بحزن وقال: «لقد أطلعت عليه. وأقول لك بصراحة
انني لا أستطيع ان أهنتك. إن الكشف عن جرم ما يجب ان يكون
علماً دقيقاً والبحث يجب ان يتم بأسلوب هادئ بعيد عن العاطفة،
لقد حاولت ان تضفي هالة من الرومانسية على القضية، وهذا
يجعل تأليف قصة حب يساوي عندك الخوض في الفرضية
الخامسة لإقليدس».

قلت معترضاً: «لكن العنصر الرومانسي كان حاضراً. أنا لا أتلاعب بالوقائع».

«بعض الوقائع يجب طمسها أو على الأقل تقاس بنسبة متساوية مع غيرها. المسألة الوحيدة في القضية التي تستحق أن يشار إليها كانت التحليل المثير للنتائج والمسببات الذي نجحت في إنجازه».

تضايقت من انتقاده لعمل وُضع خصيصاً لإرضاء له. وأعترف أيضاً أنني انزعجت من انانيته التي تطلب أن يكون كل سطر في الكرّاس مكرّساً لمآثره.

أكثر من مرة خلال السنوات التي عشت فيها معه في «بايكر ستريت» كنت ألاحظ أن في أسلوب رفيقي الهادئ والمنطقي بعض الغرور، لكنني لم أرد عليه، بل جلست أعالج الجرح في رجلي. كنت قد أصبت فيها برصاصة منذ مدة، ومع أنها لم تكن تمنعني من المشي إلا أنها كانت تؤلّني بشكل مزعج عندما يتغيّر الطقس

قال هولز، بعد قليل، وهو يملأ غليونه القديم المصنوع من جذور الورد البرّي: «لقد امتد نشاطي مؤخراً إلى القارة الأوروبية، طلب «فرانسوا لوفيلارد» منذ أسبوع استشارتي، وكما تعلم فإنه وصل إلى رتبة عالية في جهاز التفتيش الفرنسي. إنه يتمتع بموهبة أجداده «السلتيون»^(*) الذين تميزوا بحدسهم السريع، لكنه ينقصه الخوض في مجال المعرفة الدقيقة وهذا أساسي بالنسبة للتقدم في مجاله.

(*) السلتي أحد الراد عرق مندي أوروبي قطن فيما مضى أجزاء واسعة من أوروبا الغربية

كانت القضية تدور حول وصية تتضمن عدة عناصر مقيرة للاهتمام، شرحت له ملابسات قضيتين مشابھتين، قضية «ريغا» عام ١٨٥٧ والأخرى التي حدثت في سانت لويس عام ١٨٧١، وهذا ساعده على ايجاد الحل الفعلي لقضيته هذه هي الرسالة التي وصلتني منه هذا الصباح والتي يعبر فيها عن شكره لمساعدتي. وكانت مجرد ورقة مطوية مأخوذة من دفتر أجنبي، قرأتها بسرعة متوقفاً عند عدد من عبارات الإعجاب المتلاحقة. مدهش، عمل رائع، انتصار حقيقي، وكلها تدل على اعجاب صادق من المفتش الفرنسي.

قلت: «إنه يتكلم وكأنه تلميذ يخاطب استاذة».

أجاب شرلوك هولمز بلا مبالاة: «إنه يبالي في تقدير مساعدتي له لديه مواهب يستحق الثناء عليها. إنه يتمتع باتنيتين من أصل ثلاث مميزات أساسية بالنسبة للمفتش المثالي. لديه القدرة على الملاحظة والقدرة على الاستنتاج. لا تنقصه سوى المعرفة، وهذه قد تأتي مع الوقت. إنه الآن يقوم بترجمة أعمالي إلى اللغة الفرنسية».

ـ «أعمالك؟».

ردّ ضاحكاً: «ألم تكن تعلم بذلك؟ أجل، لقد قمت بتأليف مجموعة من الدراسات. كلها تتعلق بموضوعات تقنية. هذه مثلاً دراسة حول «التمييز بين رماد أنواع التبغ المختلفة»، وفيها أعددت مئة وأربعين نوعاً من تبغ السجائر وتبغ الغليون، وقد أرفقتها بلوحات ملونة تظهر الفرق في الرماد. هذه مسألة تبرز دائماً في المحاكمات الجنائية، وهي في بعض الأحيان ذات أهمية بالغة في حل اللغز. إذا استطعت مثلاً ان تثبت ان الجريمة ارتكبها رجل يدخن

تبغاً هندياً (لانكاه) فإن هذا بالتأكيد سيضيق نطاق بحثك .
وبالنسبة للعين الخبيرة هناك فارق كبير بين الرماد الأسود لنبته
التريشينوبولي وبين الرماد الأبيض الخفيف لنبته «عين الطائر» (*)
كالفارق بين رماد الملفوف ورماد البطاطا .

قلت : « أنت تتمتع بعبقريّة فذة في دراسة التفاصيل » .

- « أنا أقدر أهميتها . وهذه دراسة لي ، حول آثار الأقدام ، وهي
تضم بعض الملاحظات حول استخدام الجص الباريسي للمحافظة
على الأثر ، وهذه أيضاً دراسة صغيرة ومثيرة حول أثر المهنة على
شكل اليد وفيها رسومات لأيدي حفارين ، وبحارة وقاطعي فلّين ،
ومنضّدي أحرف في المطابع ، وحائكين وصاقلي الماس . وهذا موضوع
له أهمية بالغة بالنسبة للمفتش العلمي - خاصة في القضايا التي
لا يتم فيها طلب الجثث ، أو في اكتشاف ماضي المجرمين ، لكن يبدو
أنني أتعبك بالحديث عن هوايتي » .

أجبت بصدق : « لا ، على الإطلاق . هذا أمر في غاية الأهمية
بالنسبة لي ، خاصة بعد أن أتيحت لي الفرصة بمتابعة تطبيقك
العملي لكل ذلك ، لكنك أشرت منذ قليل إلى المراقبة والاستنتاج ،
لا شك أن كل عمل منهما يتضمن الآخر » .

أجاب وهو يسند ظهره تماماً وينفت من غليونه دوائر زرقاء
كثيفة : « نادراً ما يكون هذا صحيحاً . إن المراقبة مثلاً تقول لي أنك
كنت في مكتب البريد في شارع «ويغمور» هذا الصباح ، لكن
الاستنتاج يوحى إليّ بأنك خلال وجودك هناك قمت بإرسال برقية » .

(*) عين الطائر نبات درهوات صغيرة مدوّرة .

قلت: «صحيح! صحيح في الاستنتاجين! لكنني أقر بأنني لا أعرف كيف توصلت إلى ذلك. لقد فعلت ذلك برغبة مفاجئة، ولم أذكرها لأحد».

قال وهو يضحك ضحكة خافتة لدهشتي: «الأمر في غاية البساطة. إنه بسيط لدرجة أنه ليس بحاجة لشرح؛ لكن ومع ذلك فإنه مفيد في تحديد معالم المراقبة والاستنتاج. المراقبة تقول إن لديك كتلة صغيرة حمراء ملتصقة بباطن حذائك. ومقابل مكتب شارع «ويغمو» أزيل الرصيف والمكان مغطى بالتراب الذي وضع بطريقة يصعب فيها عدم المشي عليه عند دخول المكتب. التراب له هذا اللون الأحمر الفريد الذي لا يوجد، حسب ما أعلم، في أي مكان آخر في الجوار. هذا دور المراقبة. أما الباقي فإنه استنتاج».

ـ «كيف إذاً توصلت إلى استنتاج البرقية؟».

ـ «لقد عرفت بالطبع أنك لم تكتب رسالة منذ أن جلست بجوارك طوال فترة الصباح، كما أرى في مكتبك المفتوح ورق طابع ومجموعة من البطاقات. ما الذي يجعلك تذهب إلى مكتب البريد إذاً سوى الرغبة بإرسال برقية؟ إحدف سائر العوامل وما يتبقى هو الحقيقة».

أجبت بعد تأمل وجيز: «والحالة هذه، يبدو الأمر كذلك فالمسألة كما تقول في غاية البساطة، ولكن هل تعتبرني وقحاً إذا حاولت أن أختبر نظرياتك في إطار أشد تعقيداً؟».

أجاب: «على العكس، قد يمنعني ذلك من تناول جرعة ثانية من الكوكايين، سأكون في غاية السرور إذا سمحت لي بالنظر في مشكلتك».

- «سمعتك تقول إنه من الصعب على الإنسان أن يمتلك شيئاً يستخدمه يومياً ولا يترك عليه علامات مميزة يستطيع أن يتبينها المراقب المدرب. وفي حوزتي الآن ساعة وصلتني مؤخراً، هل تستطيع أن تعطيني صورة عن شخصية أو تصرفات مالكها الأخير؟». ثمناولته الساعة والإحساس بالمتعة يغمر قلبي، لأن الاختبار برأبي كان مستحيلاً، وأنا أردت منه أن يكون درساً للأسلوب الدوغمائي الذي كان يتبعه غالباً.

تناول الساعة بيده وأخذ يحدق في قرصها المدرج، فتحتها من الخلف وأخذ يتفحص أجزائها، بالعين المجردة أولاً، ثم بالعدسة المكبرة. لم أتمالك من الابتسام حيال علامات الخيبة التي بدت على وجهه وهو يغلق العلبة ويعيد الساعة إليّ.

قال: «يصعب العثور على أية معلومات، الساعة تم تنظيفها مؤخراً وهذا لا يمكنني من التوصل إلى حقائق واضحة».

أجبت قائلاً: «أنت على حق. لقد تم تنظيفها قبل إرسالها إليّ». كنت في داخلي أتهم رفيقي بأنه يستند إلى حجة واهنة وعقيمة يغطي بها فشله، ولكنه لم يكن كذلك. فأية معلومات يتوقع أن يجدها على ساعة منظفة؟».

أضاف وهو يحدق في السقف بعينين حالمتين باهتتين: «مع أنه ليس بالمستوى المطلوب فإن بحثي لم يكن بلا جدوى. استناداً إلى ما قلته، أعتقد أن الساعة كانت في حوزة أخيك الأكبر، الذي ورثها عن أبيه».

- «استنتجت ذلك دون شك من حرفي هـ. و. المحفورين على الجهة الخلفية».

— أجل، حرف و. يشير إلى عائلتك. تاريخ الساعة يعود إلى خمسين سنة تقريباً، وللحرفين المحفورين التاريخ نفسه. وقد صنعت إذاً قبل جيل. والمجوهرات تنتقل عادة إلى الإبن الأكبر، وهو على الأرجح يحمل اسم والده، لقد توفي والدك، على ما أذكر، منذ عدة سنوات. فالساعة إذاً كانت مع أخيك الأكبر.

قلت: «هذا صحيح حتى الآن. هل لديك شيء آخر؟».

— «لم يكن رجلاً نظيفاً. كان شديد الإهمال وغير مرتّب كانت لديه امكانيات جيدة، لكنه لم يستغل الفرص المتاحة له، عاش فترة في الفقر وأوقات قصيرة من الرخاء، وأخيراً مات بعد إدمانه شرب الخمرة. هذا كل ما أستطيع قوله».

قفزت من مقعدي وأخذت أمشي في الغرفة متضايقاً وأنا أعرج، وقلبي ممتلئ بالمرارة.

قلت له: «ليس هذا التصرف لائقاً بك يا هولز. لم أكن أتصور أنك تصل إلى هذا المستوى، لقد قمت بتحقيقات حول حياة أخي التعيسة، وأنت الآن تدّعي بأنك استنتجت هذه المعلومات بطريقة ما. لا تتوقع مني أن أصدق بأنك قرأت كل هذا في ساعته القديمة! هذا تصرف غير سليم وبكل صراحة أقول بأن فيه شيئاً من المبالغة».

قال برقة: «أيها الطبيب العزيز، أرجو أن تقبل اعتذارى، النظر في مسألة يجعلها موضوعية بالنسبة لي، ولقد نسيت مدى خصوصية هذا الأمر والألم الذي قد يسببه لك. أؤكد لك بأنني لم أكن أعلم بأن لديك أخاً قبل أن تسلمني الساعة».

«إذا كيف تمكنت من التوصل إلى كل هذه الوقائع؟ إنها صحيحة تماماً وبكل التفاصيل».

«هذا حظ جيد. أنا أستطيع ان أقول ما هو محتمل فقط. لم أكن اتوقع أبداً ان تكون نتائجي بهذه الدقة».

«لكن الأمر لم يكن مجرد تكهن».

«لا، لا، أنا لا أتكهن أبداً. إنها عادة سيئة - تدمر المقدرة العقلية. قد يبدو الأمر غريباً في نظرك وذلك لأنك لم تتبع تسلسل افكاري ولم تراقب الوقائع الصغيرة التي قد تركز إليها الاستنتاجات البالغة الأهمية، لقد بدأت مثلاً بأن أخاك كان مهملًا، عندما تشاهد القسم الأسفل من علبة الساعة تلاحظ بأنها منبعجة في نقطتين وعليها علامات كثيرة مما يدل على انها كانت توضع في الجيب مع أدوات حادة كالنقود المعدنية أو المفاتيح بالتأكيد ليس عملاً فذاً الاستنتاج بأن الرجل الذي يلقي بساعة ثمنها خمسون جنيهًا على هذا النحو هو رجل مهمل. وكذلك لم يكن الاستدلال صعباً بأن رجلاً يرث قطعة بهذه القيمة لا بد ان يكون مرتاحاً من نواح أخرى».

أحنيت رأسي تعبيراً عن متابعتي لكلامه.

«من عادة المراهبين في انكلترا انهم حين يرهنون ساعة يحفرون عليها رقم إيداع بواسطة «رأس دبوس داخل الغطاء. هذا أفضل من إلصاق ورقة عليها حيث يمكن ان يضيع الرقم أو يُنقل إلى وديعة أخرى. هناك أربعة من هذه الأرقام على الأقل أراها بواسطة العدسة داخل الغطاء. والاستنتاج الأول - ان أخاك كان غالباً في

ضائقة مالية. والاستنتاج الثاني - انه كان يعرف فترات عابرة من الرخاء، وإلا لما تمكن من استرداد ساعته واخيراً اطلب منك ان تلقي نظرة على القرص الداخلي، الذي يحتوي على موضع المفتاح، انظر إلى آلاف الخدوش حول الثقب هذه الخدوش سببها انزلاق المفتاح. هل يقوم رجل بكامل وعيه بهذا؟ ولكنك، بالمقابل لا ترى ساعة رجل سكير دون هذه الخدوش إنه يعبتها ليلاً تاركاً هذه الآثار بيده المرتجفة . أين الغموض في كل هذا؟».

اجبته قائلاً «الأمر واضح تماماً. وأنا اسف لأنني اسأت إليك. كان يجدر بي ان أكون أكثر ثقة بمقدرتك العذّة، هل أستطيع ان اسألك ما إذا كانت لديك أية قضية في الوقت الحاضر؟».

«لا. ولأجل ذلك اتناول الكوكايين لا أستطيع ان أعيش بدون منشط ذهني ما الذي يستحق ان نعيش من أجله أكثر منه؟ قف بقرب النافذة، هل سبق لك ورأيت العالم حزيناً ومنمماً وعديم الجدوى إلى هذا الحد؟ اترى الضباب الأصفر يلتف في دوامة فوق الشوارع ويتسرب بين البيوت المظلمة هل هناك ما هو أكثر ابتذالاً ومادية؟ ما فائدة ان نمتلك القدرات، أيها الطبيب، إذا لم يتوفر لنا الحقل الذي نمارسها فيه؟ الجريمة مألوفة وشائعة والوجود شيء مألوف، والأشياء المألوفة هي وحدها التي تكتسب أهمية وعملية في هذا العالم».

هممت بالرد على اقسواله العنيفة، حين قُرع الباب، ودخلت المسؤولة عن المنزل، وهي تحمل بطاقة على طبق نحاسي

قالت تخاطب رفيقي «سيدة شابة ترغب في مقابلتك، يا سيدي»

قرأ البطاقة وقال: «الآنسة ماري مورستان. لا أذكر هذا الاسم.
دعها تتفضل يا سيدة هــسون لا تذهب، يا دكتور، أفضل ان
تبقى».

- ٢ -

عرض القضية

دخلت الأنسة مورستان الغرفة بخطوة واثقة وهدوء بارز. كانت شقراء، صغيرة البنية، يدل قفازاها وثوبها على أناقة واضحة. لكن ثوبها غامق بلون الصوف الطبيعي بعيد عن الزخرفة وبسيط وغير مدروز في أسفل التنورة مما يشير إلى إمكانياتها المادية المحدودة. وقد وضعت على رأسها قبعة ضيقة زينتها بريشة دقيقة على جانبها، ولم يكن وجهها عادياً ولم يكن جميلاً في الوقت نفسه، لكن تعابيرها عذبة ولطيفة، وفي عينيها الزرقاوين الواسعتين جاذبية خاصة.

من خلال تجربتي مع النساء، والتي شملت العديد من الدول وثلاث قارات لم يسبق لي ان شاهدت وجهاً يوحي بهذا القدر من الرقة والصفاء. لاحظت وهي تجلس على المقعد الذي أشار إليها به شرلوك هولمز، ان شفتيها ترتجفان وان يدها ترتعش باضطراب شديد.

قالت: «لقد قصدتك يا سيد هولمز لأنك ساعدت مرة السيدة «سيسيل فورستر» التي أعمل عندها، في إيجاد حل لمسألة عائلية بسيطة، كانت متأثرة جداً بلطفك ومهارتك».

قال وهو يفكر قليلاً مردداً الاسم: «السيدة سيسيل فورستر،

أعتقد انني لم افدها كثيراً. كانت القضية على ما أذكر في غاية البساطة».

- «لكنها لم تكن تعتقد ذلك. وأنت لن تستطيع على الأقل ان تطلق هذه الصفة على قضيتي. لا يمكنني ان أتخيل وضعاً أكثر غرابة أو غموضاً مما انا فيه الآن».

فرك هولز يديه والتمعت عيناه، إنحنى قليلاً وبدأت علامات التركيز على ملامح وجهه الحادة، ثم قال بصوت واثق: «إعرضي قضيتك».

شعرت ان وجودي لا مبرر له، فقلت وأنا أنهض من مقعدي: «أرجو ان تسمح لي بالخروج».

دُهِشت حين رفعت السيدة الشابة يدها لتمنعني من ذلك، وقالت: «لويبقى صديقك معنا، فإنه سيقدم لي خدمة لا تقدّر».

عدت إلى مقعدي، وتابعت قائلة: «باختصار هذه هي الوقائع: كان والدي ملازماً في كتيبة في الهند؛ وقد أرسلني إلى انكلترا وأنا لا أزال طفلة. كانت أمي قد فارقت الحياة، ولم يكن عندنا أقرباء في انكلترا. فوضعت في مأوى مريح في ادينبرا، ومكثت في تلك المؤسسة حتى بلغت السابعة عشرة».

سنة ١٨٧٨ كان والدي قد رُقّي إلى رتبة كابتن في كتيبته، فحصل على اجازة لمدة سنة وعاد إلى الوطن. أرسل إليّ برقية من لندن يخبرني فيها بوصوله ويطلب مني الحضور إليه، وأعطاني عنوان فندق لانغهام. كانت رسالته، كما أذكر، تفيض عاطفاً وحباً. عند وصولي إلى لندن قصدت الفندق فقيل لي ان الكابتن مورستان

نزىل ففء؁ لكفء ءرف مساء اللفلة الماضفة ولم فءء اننظرف طوال الفوم ءون ان أرفق منء ءبراً. فف المساء؁ ارفلف بناء على نصفءة مءفر الفنءق بالشرفة؁ وفف صباء الفوم الفالف نشرنا ءءبر فف الصءف. مءاولافنا لم رفل بنا إلى نففءة؁ ومنء ذلك الفوم وءف إلى الآن لم أءء أءرف شفاءً عن والءف المسكفن. عاء إلى الوطن وقلبف فأمل بالاسفرار والراحة وبعلاً من ذلك...».

وضءف فءفا على ءنءرففا؁ وكم صوففا بكاء صامف. سألفا هولز وهو فففر ءفر ملاحظافف: «وفارفء ذلك؟».

- «لقد اءففى فوم الفالف من شهر كانون الأول عام ١٨٧٨ - أف منذ عشر سنواف رفرافاً».

- «وأمرءفء؟».

- «بففف فف الفنءق. لم فكن فففا ما فمكن ان فسفرءم كءفل: ثفاب ومءموعة كرف وكمفة لا بأس بها من الفءف الغربفة الفف أءضرفا معه من ءزر أنءمان. كان أءء الضفباط المسؤولفن عن ءرف السءن هناك».

- «هل كان لءفه أصفءاء فف المءفنة؟».

- «لا أءرف سوى صءفق واءء هو الرائف شولف؁ وكان فف الكفففة نفسفا؁ كفففة المشاة الرابعة والفالففن فف بومباف. كان الرائف مفقاعداً وفسكن فف نورووء. ارفلفنا به بالطبع؁ لكفء لم فكن فعلم بأن زمفله عاء إلى انكفرا».

قال هولز معلقاً: «هذه قصفة فرفة».

- «لم أصف لك بعء الجزء الأكثر عرابة. منذ ءوالف سف سنواف

- وعلى سبيل الدقة في الرابع من شهر أيار (مايو) عام ١٨٨٢ -
قرأت اعلاناً في جريدة «التايمز» يطلب عنوان الأنسة ماري
مورستان، ويشير الإعلان إلى مصلحتها في ذلك. لم يكن في الإعلان
اسم أو عنوان. كنت في تلك الفترة قد بدأت بالعمل عند عائلة
السيدة سيسيل فورستر كمربية أطفال. وبناء على نصيحة السيدة
فورستر أرسلت بعنواني إلى الجريدة وتم نشره في زاوية الإعلانات.
وفي اليوم نفسه وصلتني بواسطة البريد علبة كرتونية صغيرة تحمل
عنواني، وحين فتحتها وجدت في داخلها لؤلؤة كبيرة برّاقة. لم يكن
معهما أية ورقة توضح لي الأمر. ومنذ ذلك الحين وفي التاريخ نفسه
تصلني كل عام علبة مماثلة، تحتوي على لؤلؤة مماثلة دون أية
إشارة تدلني على المرسل. أحد الخبراء قال لي ان هذه اللآلئ نادرة
وثمينة. وسترى بنفسك انها رائعة».

وفتحت أمامي علبة رأيت في داخلها ست لآلئ لم يسبق ان
شاهدت بجمالها من قبل.

قال شرلوك هولمز: «حديثك مهم جداً، هل حدث شيء آخر؟».

- «أجل، هو ما حدث اليوم. وأنا قصدتك من أجله. هذا الصباح
وصلتني هذه الرسالة، وأود لو تقرأها بنفسك».

قال هولمز وهو يتناول منها الرسالة: «شكراً. أرجوك، المغلف
أيضاً. علامة البريد تشير إلى مدينة لندن، والتاريخ ٧ تموز، هناك
بصمة إبهام على زاوية المغلف، لا شك انها لساعي البريد. الورق
من صنف ممتاز، ثمن مجموعة من هذه المغلفات هو ستة بنسات.
رجل مميز في اختيار ما يستخدمه للكتابة. لا عنوان.

«كوني عند العمود الثالث من الجهة اليسرى خارج مسرح
ليسيوم هذه الليلة عند الساعة السابعة. إذا كنتِ في ريبة أحضري
معك صديقين. أنت امرأة مظلومة وسوف يُرفع الظلم عنك، لا
تحضري معك الشرطة، إذا فعلت ذلك، يضيع كل شيء، صديقك
المجهول».

حسناً، هذا بالتأكيد لغز مثير! «ماذا تنوين أن تفعلي يا آسة
مورستان».

– «هذا بالتحديد ما أود أن استشيرك به».

– «إذاً سوف نذهب بالتأكيد – أنت وأنا و – بالطبع الدكتور
واقسون. إنه الرجل المناسب. المرسل يقول: صديقان، وأنا
والدكتور سبق لنا العمل سوياً».

سألتني بصوت يحمل نبرة من التوسل: «ولكن، هل سيقبل هو
بذلك؟».

أجبت بحماس: «أكون فخوراً وسعيداً إذا استطعت أن أقدم
أية خدمة».

قالت: «أنتما لطيفان جداً، إنني أعيش في عزلة تقريباً وليس
لديّ أصدقاء أستطيع اللجوء إليهم. إذا كنت هنا في السادسة
مساء يكون الوقت مناسباً، أليس كذلك؟».

قال هولز: «لا تتأخري عن ذلك. لكن هناك مسألة أخرى. هل
هذا الخط هو نفسه الذي كتبت به العناوين على العلب
الكرتونية؟».

أجابته: «إنني أحملها جميعاً»، وقدمت له نصف دزينة من الأوراق.

- «أنت بالتأكيد زبونة مثالية. تملكين الحدس الصحيح. دعيني أراها الآن». وبسط الأوراق على الطاولة وهو يحدد فيها واحدة تلو الأخرى، ثم قال: «الخط فيه شيء من المكن باستثناء الرسالة. لكن ليس هناك من شك في الكاتب، إنها بالتأكيد رسالة من قبل الشخص نفسه، انظرا إلى طريقة حرف (S) فيها جميعاً، وإلى الإستدارة الأخيرة في حرف (S) أيضاً. لا أريد أن أوحى لك بآمال كاذبة يا آنسة مورستان، ولكن هل هناك شبه بين هذه الكتابة وخط والدك؟».

- «لا، على الإطلاق».

- «توقعت إجابتك هذه. سوف تعودين لاصطحابنا عند السادسة إذن. أرجو أن تسمح لي بالاحتفاظ بالأوراق، قد أعيد النظر في الأمر قبل الموعد. إنها الآن الثالثة والنصف، إلى اللقاء إذن».

قالت ضيفتنا: «إلى اللقاء»، وهي تلتفت إلى كل منا بلطف، ثم أعادت علبة اللآلئ إلى حقيبتها وخرجت مسرعة.

قلت وأنا التفت نحو رفيقي: «يا لها من امرأة جذابة».

كان قد أشعل غليونه مرة ثانية، وأرجع ظهره إلى الوراء وبدأ التعب في عينيه، قال بفتور: «حقاً؟ أنا لم ألاحظ ذلك».

قلت بصوت مرتفع: «أنت بالفعل إنسان آلي - آلة حاسبة. وتبدو لي أحياناً وكأنك لست كسائر البشر».

ابتسم بهدوء وردّ قائلاً: إنه لمن الأهمية بمكان ان لا تترك المجال للعواطف الشخصية أن تؤثر على رأيك. الزبون بالنسبة لي هو مجرد وحدة، أو عامل في مسألة معينة. إن الجوانب العاطفية مرفوضة في التفكير السليم. أوكد لك بأن أجمل سيدة عرفتُها نُفذَ فيها حكم الإعدام شنقاً لأنها أقدمت على قتل أطفالها الثلاثة بواسطة السمّ وذلك من أجل الحصول على قيمة بوليصة التأمين التي تخصّصهم، وأكثر رجل فظّ عرفتُه كان مبغضاً للناس، لكنه أنفق على فقراء مدينة لندن حوالي ربع مليون من الجنيهات».

— «لكن بالنسبة لهذه الحالة».

— «أنا لا أستثني أبداً. الاستثناء يبطل القاعدة. هل سبق لك ودرست شخصية المرء من خطّه؟ بماذا توحى لك هذه الخربشة؟».

أجبتّه قائلاً: «الخط مقروء ومتناسق. هذا الرجل له باع في التجارة، ويتمتع بقوة شخصية».

هزّ هولز رأسه قليلاً: «أنظر إلى الحروف الطويلة. إنها بالكاد تعلو قليلاً عن الحروف الأخرى، حرف (d) قد يكون حرف a وحرف (l) حرف (e). ذوو الشخصية المتميزة ينتبهون دائماً للفارق بين الحروف، حتى ولو كانت كتابتهم غير مقروءة تقريباً. هناك تردد في حرف (r) وتقدير ذاتي في الحروف الأولى، إنني خارج الآن. ثمة أمور يجب ان أنتهي منها. واقترح عليك قراءة واحد من أهم الكتب التي صدرت حتى اليوم، إنه كتاب «وينود ريد» «معاناة الانسان» سأعود بعد ساعة».

جلست قرب النافذة والكتاب في يدي، لكن أفكاري كانت بعيدة

عن تأملات الكاتب الجريئة. كنت أفكر بالزائرة - ابتساماتها،
نبرات صوتها العميقة والصافية، والغموض الغريب الذي يحوم
حولها، هي لو كانت في السابعة عشرة عند اختفاء والدها فإنها
اليوم في السابعة والعشرين - فترة عذبة، يبدأ الشباب خلالها
يتخلّى عن ذاتيته وتجعله التجارب أكثر رصانة. استغرقت في
تأملاتي إلى أن بدأت أفكار خطيرة تفتح عذلي فنهضت مسرعاً
إلى مكتبي وانغمست بجدية في قراءة آخر بحث حول علم الأمراض،
ذلك أنني لست سوى طبيب في الجيش رجله ضعيفة وكذلك حسابه
في المصرف، فكيف أجروا على التفكير في هذه الأمور؟ ليست هذه
الشابة إلا وحدة أو عاملاً في قضية - لا أكثر. حتى لو كان مستقبلي
قاتماً، فمن الأفضل بالطبع مواجهته بجرأة بدلاً من محاولة إنارته
بسراب الخيال المخادع.

- ٢ -

بحثاً عن حل

كانت الساعة الخامسة والنصف حين عاد هولز. كان وجهه مشرقاً، وبدأ متحمساً ونشيطاً، وهذا مزاج قد ينقلب عنده إلى حالات من اليأس المطلق.

قال وهو يتناول كوب الشاي الذي قدمته له: «ليس في الأمر الكثير من الغموض. تبدو الوقائع وكأنها تقود إلى تفسير واحد»

– «ماذا حصل؟ هل وجدت الحل بهذه السرعة؟».

– «لا، هذا أكثر مما عنيت. لقد توصلت إلى عنصر هام، هذا كل ما في الأمر، لكنه على أية حال شديد الأهمية. هناك تفاصيل يجب إضافتها. لقد عرفت منذ قليل وأنا ألتفقد ملفات التايمز القديمة ان الرائد شولتو الذي يسكن في نوروود، وكان من أعضاء فرقة المشاة الرابعة والثلاثين في بومباي، توفي في الثامن والعشرين من شهر نيسان (ابريل) عام ١٨٨٢».

– «يبدو انني بليد الذهن يا هولز لأنني عاجز عن فهم مدى أهمية هذا الأمر».

– «صحيح؟ أنت تدهشني. أنظر إلى الموضوع من هذه الزاوية

إذن: الكابتن مورستون يختفي. الشخص الوحيد الذي قد يكون قام بزيارته هو الرائد شولتو. والرائد شولتو ينكر بأنه على علم بوجوده في لندن. وبعد ذلك بأربع سنوات يموت شولتو. وبعد وفاته بأسبوع واحد تصل إلى ابنة الكابتن مورستون هدية ثمينة أخذت تتكرر سنة بعد سنة وتبلغ ذروتها بالرسالة التي تصفها بأنها امرأة مظلومة. أي ظلم تشير إليه الرسالة سوى حرمانها من أبيها؟ ولماذا تبدأ الهدايا مباشرة بعد وفاة شولتو إلا إذا كان وريته يعرف شيئاً من هذا اللغز ويودّ أن يقدم تعويضاً؟ هل لديك رأي آخر استناداً إلى هذه الوقائع؟».

ـ «لكن يا له من تعويض غريب! وأسلوب تقديمه يبدو أكثر غرابة ثم لماذا أيضاً يكتب رسالة الآن، ولم يفعل ذلك قبل ست سنوات؟ هذا بالإضافة إلى أن الرسالة تقول بأنها ستنصفها. أي إنصاف هذا؟ من المستبعد أن يكون والدها لا يزال حياً. ولا نعرف أن هناك ظلماً آخر لحق بها».

قال شرلوك هولمز وهو مستغرق في التفكير: «هناك صعوبات؛ هناك بالتأكيد صعوبات، لكن حملتنا الليلة ستحلّها جميعاً. آه، لقد وصلت عربة الأنسة مورستان، هل أنت جاهز؟ إذاً من الأفضل أن ننزل في الحال، لأننا على وشك أن نتأخر».

تناولت قبعتي وعصاي، وانتبھت إلى أن هولمز أخذ مسدسه من الدرج ووضعه في جيبيه. واضح أنه يعتبر عملنا هذه الليلة على شيء من الخطورة.

كانت الأنسة مورستان ترتدي معطفاً واسعاً أسود اللون، وبدت ملامحها المرفهة هادئة يشوبها الشحوب. كان يجب أن تكون أكثر

من امرأة كي لا تشعر ببعض القلق إزاء العمل الغامض الذي شرعنا في تنفيذه، لكنها كانت تتمالك نفسها جيداً، وأجابت مباشرة على الأسئلة الإضافية التي وجهها إليها شرلوك هولمز.

قالت: «الرائد شولتو كان صديقاً عزيزاً لوالدي، كانت رسائله إليّ مليئة بالعبارات التي تشير إلى الرائد. كان هو ووالدي في قيادة القوات في جزر أندمان، لذلك أمضينا وقتاً طويلاً معاً بالمناسبة هناك ورقة غريبة عُثر عليها في مكتب والدي ولم يفهم أحد معناها. لا أظن أن لها أهمية، لكنني تصوّرت بأنك تفضل مشاهدتها، لذلك أحضرتها معي. ها هي».

تناول هولمز الورقة بتأن وسوّاها على ركبته، ثم قام بتفحصها باهتمام شديد بواسطة عدسته.

قال: «إنها ورقة من إنتاج هندي محلي. سبق وأن علّقت على لوح. والرسم الذي يظهر عليها يبدو كأنه خارطة لقسم من مبنى ضخم فيه قاعات عديدة، وممرات ومجازات بين الأقسام المختلفة في نقطة محددة رسم لصليب صغير بالحبر الأحمر كتب فوقه «٣٧٣ من جهة اليسار» والكتابة باهتة ودوّنت بالرصاص. في الزاوية اليسرى توجد أربعة صلبان شكلها هيروغليفي غريب، وهي مرسومة على خط واحد وذراع كل منها يلامس ذراع الآخر. وإلى جانبها مدوّن بخط عريض وحاد: «عصابة الأربعة - جوناثان سمول، محمد سنج، عبدالله خان، دوست أكبر» أعترف بأنني لا أرى العلاقة بين هذه الورقة وبين القضية إلا أنها بالتأكيد وثيقة مهمة، كانت محفوظة بعناية بين صفحات كتاب، لأنها نظيفة من الجهتين».

– «لقد وجدناها بالفعل بين صفحات كتاب».

– «احتفظي بها بعناية، يا آنسة مورستان، لأنها قد تكون مفيد لنا. بدأت أعتقد ان الأمر سيكون أكثر تعقيداً ودقة مما تصورت للوهلة الأولى. يجب أن أعيد النظر في أفكاري».

أسند ظهره إلى المقعد، وبدأ من خلال انحناءة حاجبيه والشروخ في عينيه انه كان مستغرقاً في أفكاره. أخذت أتبادل الحديث مع الأنسة مورستان بصوت منخفض حول رحلتنا هذه وما قد يتأثر عنها، لكن مرافقنا حافظ على تكتمه وصمته حتى نهاية الطريق.

أقبل المساء ولم تكن الساعة قد شارفت على السابعة بعد، كان هذا اليوم من أيام شهر أيلول كثيباً، والضباب الكثيف والرطب يغمر المدينة، والسحب التي تشبه الطين بلونها كانت تنسدل فوق الشوارع الموحلة والقائمة. في شارع ستراند كانت المصابيح بقعا ضبابية تلقي وميضاً باهتاً ومستديراً على الرصيف الموحل. كان الوهج الأصفر يتسرب من نوافذ المخازن إلى الهواء المشبع بالبخار ويرسل إشعاعاً متأرجحاً وضبابياً على الشارع المزدحم. والموكب اللامتناهي من الوجوه التي تمر بسرعة أمام أشعة الضوء النحيلة كان شبحياً ومخيفاً في عيني – وجوه حزينة وفرحة، منهكة ونشيطة. ومثل كل الناس، كان هؤلاء المارة يعبرون من الظلام إلى الضوء وإلى الظلام ثانية.

لست ممن يستسلمون للأفكار الغريبة، لكن المساء الغائم والمندر بالمطر بالإضافة إلى المهمة الغريبة التي أوكلت إلينا، كل هذه العناصر اجتمعت لتجعلني مضطرباً ومتضايقاً. وبدأ لي من تصرفات الأنسة مورستان انها تعاني من الحالة نفسها. هولز

وحده يستطيع ان يتخطى مثل هذه المؤثرات الثانوية. كان يضع دفتر ملاحظاته مفتوحاً على ركبته، ومن حين إلى آخر كان يدون فيه افكاراً وأشكالاً على ضوء مصباح الجيب الذي يحمله.

كانت الجموع محتشدة عند مدخل مسرح ليسيوم. وكانت المركبات بعجلتين أو بأربع عجلات تتسارع أمام المسرح، فتتوقف قليلاً لتفرغ حمولتها من رجال يرتدون بدلات السهرة وسيدات بكامل أناقتهن وزينتهن. لم نكد نصل إلى العمود الثالث وهو المكان المحدد للقاء، حتى تقدّم نحونا برشاقة رجل قصير القامة أسمر اللون يرتدي بذلة سائق، وخاطبنا قائلاً: «أنتم جماعة الأنسة مورستان؟».

قالت له: «أنا الأنسة مورستان، وهذان السيدان صديقان لي».

نظر إلينا ملياً بعينين ثاقبتين ومرتابتين، وقال بإصرار: «أرجو المذرة يا آنسة، ولكنّ لديّ أمر بالتأكد ان أياً من مرافيك ليس شرطياً».

أجابته قائلة: «أستطيع ان أتعهد بذلك».

اطلق صفيراً حاداً، فتقدمت نحونا عربة يقودها سائق عربي وفتح لنا الباب. صعد الرجل الذي قابلنا أولاً ثم تبعناه، ولم نكد نأخذ أماكفنا في داخل العربة حتى استحث السائق الجواد بالسوط، فاندفعنا بسرعة بالغة عبر الشوارع الضبابية

كان وضعنا غريباً. كنا في طريقنا إلى مكان مجهول، في مهمة مجهولة. والدعوة التي وُجّهت إلينا قد تكون مجرد خدعة - وهذا

افتراض غير مقبول - أو اننا نستطيع فعلاً انتظار نتائج هامة ستتأتى من رحلتنا هذه.

بدأت الأنسة مورستان هادئة وواثقة من مسعانا، حاولت الترويح عنها وتسليتها بذكريات مغامراتي في أفغانستان، إلا أنني بصراحة كنت منفعلاً من وضعنا ومنشغل البال في المكان الذي نقصده لدرجة ان حكاياتي كان يشوبها بعض التشويش. وحتى هذا اليوم تقول الأنسة مورستان أنني أخبرتها نادرة مثيرة عن إيل دخل إلى خيمتي في منتصف الليل، وأنني أطلقت عليه ذخيرة بندقيتي المزدوجة. في البداية كان من السهل عليّ معرفة الاتجاه الذي نسير فيه، لكن بعد فترة وبسبب السرعة والضباب ومعرفتي المحدودة لمدينة لندن، فقدت وجهة سيرنا ولم أعد أميز شيئاً سوى اننا نقطع مسافة طويلة جداً. لكن شرلوك هولمز لم يكن محتاراً أبداً وكان يتمم أسماء الشوارع فيما كانت العربّة تجتاز الساحات وتقطع الشوارع الفرعية المتعرجة.

أخذ هولز يردد: «روتشستررو، والآن فنسنت سكوير، والآن وصلنا إلى فوكسهول بريدج رود. نحن باتجاه ضاحية ساري كما يبدو. أجل، هذا ما توقعته. نحن الآن على الجسر. نستطيع رؤية مياه النهر».

استطعنا بالفعل ان نشاهد بسرعة خاطفة التماعة مياه التايمز تحت المصابيح التي ترسل أشعتها المتألئة على صفحة مياهه الواسعة والساكنة؛ واجتازت عربتنا الجسر لتحملنا إلى متاهة جديدة من الشوارع على الجانب الآخر.

قال رفيقي: «وردورث رود، برايموري رود، لارك هول لاين،

ستوكويل بلايس، شارع روبرت، كولد هاربور لاين. يبدو ان بحثنا لا يقودنا إلى أماكن كثيرة الرقيّ».

كنا بالفعل قد وصلنا إلى ضاحية تبعث على الريبة والنفور صفوف طويلة من بيوت الآجر المعتمة يضيئها وهج مصابيح الحانات عند ناصية الشارع. ثم صفّان من «الفيلات» وأمام كل واحدة منها حديقة صغيرة، تأتي من بعدها صفوف لا تنتهي من أبنية الآجر الجديدة مجسّمات عملاقة ألقت بها المدينة الكبيرة في أرض الريف. توقفت العربّة أخيراً عند ثالث بيت في صف من المنازل الحديثة. لم تكن المنازل الأخرى مسكونة، والبيت الذي وقفنا أمامه كان معتماً أيضاً، وليس فيه إلا ضوء خافت كان يتسرب من نافذة المطبخ. حال وصولنا فتح لنا الباب خادم هندي تغطي رأسه عمامة صفراء، ويرتدي بدلة بيضاء فضفاضة ويضع حزاماً أصفر، كان شكل هذا الخادم الشرقي غير منسجم مع بيت عادي من بيوت الضاحية.

قال لنا: «(الصاحب) في انتظاركم»، وفيما كان يتكلم سمعنا صوتاً حاداً وعالياً من إحدى الغرف الداخلية يقول: «دعهم يتفضلون يا ختمتغار، دعهم يدخلون إليّ مباشرة».

-٤-

حكاية

الرجل الأصلع

تبعنا الخادم الهندي عبر ممر عادي ومهمل، سيء الإضاءة وأكثر سوءاً من ناحية الأثاث، حتى وصل بنا إلى باب في الجهة اليمنى وعندما فتحه تدفق بريق أصفر من الداخل، وبدأ من خلال ذلك البريق رجل صغير البنية، يغطي جانبي رأسه السامخ تسعر أحمر خشن يلتف حول مساحة جرداء لامعة تبدو والشعر من حولها كأنها قمة جبل تكسوه أشجار التنّوب. كان واقفاً وهو يضع يداً في يده، وكانت ملامحه دائمة التبدل من الابتسام إلى العبوس لا تهدأ دقيقة واحدة. منحته الطبيعة شفة متدلّية ومجموعة غير متناسقة من الأسنان الصفراء التي كان يحاول جاهداً إخفاءها باستخدام يده لتغطية القسم الأسفل من وجهه، وبالرغم من الصلع الناتئ في رأسه كان يبدو شاباً، والحقيقة أنه كان في بداية الثلاثين من عمره.

قال بصوت عالٍ ورقيق. «في خدمتك يا آنسة مورستان، في خدمتكما أيها السيدان. أرجو أن تتفضلوا بالدخول إلى مكثبي الخاص. إنه صغير الحجم يا آنسة، لكنه مجهّز حسب اختياري. إنه واحة فنية في وسط هذه الصحراء الهائلة في جنوب لندن»

دهشنا جميعاً من الغرفة التي دعانا للدخول إليها. لقد بدت في وضع لا يناسب هذا البيت التافه، كماسة من الصنف الأول تزين حلية من النحاس. أثمن وأجمل الستائر والانسجة الملونة كانت تغطي الجدران، وكانت معلقة في أماكن عدة لتبرز لوحة رائعة أو زهرية من بلاد المشرق. كانت السجادة، باللونين الأسود والعاجي، ناعمة ومكتنزة لدرجة أن القدم تستسيغ الغوص فيها، كما لو أنها مساحة يغطيها الطحلب. وعلى جانبيها ألقى جلداً نمر كبيراً مما أضفى المزيد من الفخامة على هذا الديكور الشرقي، كما برزت نارجيلة ضخمة وضعت على قماش مزخرف في زاوية الغرفة. وفي وسط الغرفة يتدلى مصباح على شكل حمامة فضية يحمله شريط ذهبي تكاد لا تراه العين. وفيما كان يشتعل كان يملأ جو الغرفة برائحة لطيفة وعطرة.

قال الرجل القصير وهو لا يزال يرتعش ويبتسم: «اسمي تاديوس شولتو. وأنتِ الآنسة مورستان بالطبع، وهذان السيدان...».

... «هذا السيد شلوك هولز، وهذا الدكتور واتسون».

قال بعصبية متزايدة: «دكتور؟ هل تحمل معك سماعة الفحص؟ هل أستطيع أن أطلب منك أن تتكلم بمعانيتي؟ إنني أشك في صحة الصمام التاجي. الشريان الأورطي لا بأس به، لكنني أود أن أسمع رأيك بالنسبة للصمام...».

استمعت إلى قلبه بناءً على طلبه، لكنني لم أجد أي نقص، سوى أنه كان خائفاً بالفعل لدرجة أنه كان يرتجف من رأسه حتى قدميه.

قلت له: «يبدو كل شيء طبيعياً. لا داعي للقلق».

أجاب برقّة: «أرجو أن تعذريني لانفعالي يا آنسة مورستان، منذ فترة طويلة وأنا أعاني وأشك في أمر هذا الصمّام، وأنا سعيد الآن لأن خوفي في غير محله. لو أن والدك يا آنسة مورستان انتبه لقلبه ومنع عنه المزيد من الإجهاد لكان اليوم على قيد الحياة».

كنت أود لو أضرب هذا الرجل على وجهه، فقد أثارني بأسلوبه القاسي والقسّ في التعرّض لموضوع دقيق كهذا. جلست الآنسة مورستان وهي شاحبة الوجه وقالت: «كنت متأكّدة من أنه مات».

قال لها: «أستطيع أن أقدم لك ما تشائين من معلومات. وبالإضافة إلى ذلك أستطيع أن أنصفك؛ وسوف أفعل ذلك مهما كان رأي أخي برتلوميو. أنا سعيد بوجود صديقك هنا ليس فقط كمراقبين لك بل كشاهدين على ما سأفعله وسأقوله. نحن الثلاثة نشكل جبهة قوية في مواجهة أخي برتلوميو. لكنني أرجو أن نستبعد المتطفلين من الشرطة أو الموظفين الرسميين، نستطيع التوصل إلى اتفاق مرضٍ فيما بيننا بدون أي تدخل، لا شيء يضايق أخي برتلوميو أكثر من شيوع الأمر».

جلس على أريكة واطئة وهو ينظر إلينا بعينين زرقاوين طارفتين، فقال له هولمز: «بالنسبة لي، أي شيء تود قوله لن أنقله لأحد».

وقمت بإحناء رأسي لإظهار موافقتي على ذلك. فقال: «حسناً! حسناً! هل أستطيع أن أقدم لك كأساً من الشاي يا آنسة مورستان؟ أو من التوكاي؟ أنا لا احتفظ بأنواع أخرى من الخمر. هل أفتح زجاجة؟ لا؟ حسناً، أعتقد أنك لا تتضايقين من التدخين، أو من الرائحة المسكّنة للتبغ الشرقي. إنني مضطرب قليلاً، وأجد في النارجيلة مهدّئاً لا مثيل له».

أشعل فتيلاً في الوعاء الكبير وبدأ الدخان يتصاعد عبر المياه الوردية، كنا نحن الثلاثة نجلس في نصف دائرة وكل واحد منا يسند رأسه بيده، فيما مضيفنا الصغير والمرتعش والغريب الأطوار برأسه اللامع ينفث الدخان باضطراب في وسط الغرفة.

قال: «عندما قررت ان أبعث إليك رسالتي، كنت أستطيع ذكر عنواني؛ لكنني كنت أخشى ان ترفضني طلبي وتحضري معك أشخاصاً كريهين. لذلك قررت تحديد الموعد بهذه الطريقة كي يتمكن حارسي ويليامز من رؤيتكم أولاً. إنني أثق فيه ثقة مطلقة، وكانت لديه الأوامر بأن يلغي اللقاء في حال عدم اقتناعه. أرجو ان تعذروني لاتخاذ هذه الاحتياطات، لكنني رجل ذو مزاج منكفيء وأستطيع ان أكون رقيق أيضاً، وليس هناك ما هو أكثر قبحاً من رجل الشرطة. لدي نفور طبيعي من كل الأشكال المادية الفظة. نادراً ما أخرج بين الناس العاديين. إنني أعيش، كما ترؤن، في مناخ خاص من الأناقة يحيط بي، أستطيع ان أطلق على نفسي لقب نصير الفنون، هذه نقطة ضعفي. هذا المشهد الطبيعي لوحة أصلية لكورو، مع ان خبيراً قد يشك في أمر تلك اللوحة ونسبتها إلى سلفاتور روزا، ولكن لا مجال للشك أبداً في أصالة لوحة بوجرو. إنني أميل إلى المدرسة الفرنسية الحديثة».

قالت الأنسة مورستان: «أرجو المعذرة يا سيد شولتو، لكنني حضرت بناء على طلبك من أجل معرفة أمر تودّ إطلاعي عليه. الوقت متأخر، وأودّ لو يكون اللقاء أقصر وقت ممكن».

أجابها بقوله: «من الأفضل ان يأخذ بعض الوقت. لأننا سوف نصطر للذهاب إلى نوروود لمقابلة أخي برتلوميو. سوف نذهب

جميعاً ونحاول الحصول على أفضل ما يمكن تقديمه. إنه غاضب جداً لأنني اتخذت المبادرة التي بدت الطريق الصواب بالنسبة لي. الليلة الماضية تبادلنا وإياه حديثاً قاسي اللهجة. لا يمكنكم تصور مدى فظاعة هذا الانسان حين يغضب»

تجرات وقلت له: «إذا كنا سنذهب إلى نورود فيجب ان نبدأ رحلتنا في الحال».

ضحك حتى احمرت اذناه، وصرخ: «هذا ليس وارداً. لا اعرف ماذا سيقول لو اصطحبتم لزيارته بهذا الاسلوب المفاجيء. لا، يجب ان ابدأ بإعدادكم وذلك بشرح موقف كل واحد منا بالنسبة للآخر. وأقول لكم: أولاً، ان هناك عدة نقاط مازلت أجهلها. إنني استطيع فقط ان أعرض الوقائع امامكم كما أعرفها.

«كان والدي، ولا شك انكم تعرفون ذلك الآن، الرائد جون شولتو، من أفراد الجيش الهندي، تقاعد منذ إحدى عشرة سنة وعاد ليعيش في بونديتشي لودج في نورود العليا. كان قد جمع ثروة في الهند وعاد بمبلغ لا بأس به، بالاضافة إلى مجموعة كبيرة من التحف الثمينة ومجموعة من الخدم المحليين. اشترى لنفسه بيتاً وعاش في رفاهية. ولم يكن لديه اولاد إلا أخى التوأم برتلوميو وأنا.

«أذكر جيداً حالته عند وفاة الكابتن مورستان. قرأنا التفاصيل في الصحيفة، ولأننا كنا نعرف انه أحد أصدقاء والدنا أخذنا نناقش الأمر في حضوره. كان يشارك في تخمين الاحتمالات المعقولة. ولم نكن نشك لحظة واحدة ان السر كان مكتوماً في صدره، وانه وحده كان يعرف مصير آرثر مورستان.

«لكننا عرفنا ان لغزاً ما يحيط بحياة والدنا وانه كان في خطر فعلي. كان يخاف ان يخرج بمفرده، وكان يستخدم اثنين من الملاكمين المحترفين ليعملاً عنده في بونديتشري لودج. ويليامز الذي كان يقود العربة هذا المساء هو واحد منهما، لقد كان ذات مرة بطل انكلترا في الوزن الخفيف لم يكن والدنا يخبرنا سبب خوفه، لكنه كان يكره ذوي الأرجل الخشبية. ولقد أقدم مرة على إطلاق رصاص مسدسه على شخص برجل خشبية تبين لاحقاً انه بائع غير مؤد يطوف على التجار لتأمين الطلبات. قمنا بدفع مبلغ كبير من المال كي لا تُثار ضجة حول هذا الموضوع، كنت وأخي نعتقد انها مجرد نزوة عند والدي، لكن الأحداث أجبرتنا فيما بعد على تغيير رأينا.

«في بداية سنة ١٨٨٢ استلم والدي رسالة من الهند سببت له صدمة كبيرة. كان يتناول فطوره حين فتحها وكاد يغمى عليه، ومنذ ذلك اليوم أخذت تسوء صحته حتى يوم وفاته. لم نعرف أبداً محتوى الرسالة، لكنني ألقيت عليها نظرة وهي في يده فعرفت انها قصيرة ومكتوبة بخط مخربش. عانى والدي سنوات عديدة من تضخم في الطحال، ثم تدهورت حالته، وعرفنا عند نهاية شهر نيسان أن الأمل مفقود من شفائه، وانه يود ان يرانا للمرة الأخيرة.

«دخلنا غرفته فوجدناه في سريره ورأسه مرفوع على مجموعة من الوسائد ويتنفس بصعوبة، طلب منا ان نغلق الباب وان نقف بجواره، وثم أمسك بأيدينا وصرّح أمامنا بأمر ملفقة وذلك بصوت منخفض من شدة الانفعال والألم معاً. سأحاول ان أعيد كلماته أمامكم كما سمعتها منه.

قال: «شيء واحد فقط يشغل بالي في هذه اللحظة الحاسمة، ان

الاسلوب الذي عاملت به ابنة مورستان اليتيمة. الطمع الملعون الذي كان خطيئتي المزعجة خلال حياتي جعلني أحرمها من الكنز، الذي تستحق نصفه على الأقل. ومع ذلك لم أستخدمه أنا أيضاً. الجشع صفة غبية وعمياء. مجرد الإحساس بالامتلاك كان بالنسبة إليّ في غاية الأهمية لدرجة انني لم أجرؤ على اقتسام الكنز مع شخص آخر. هل تريان تلك السبحة المصنوعة من اللآلئ بجانب زجاجة الكينين. حتى هذه لم أستطع ان أتخلّى عنها، مع انني انتقيتها من أجل إرسالها إليها. أنتما، يا ولداي، سوف تعطيانها حصة عادلة من كنز آغرا. لكن لا ترسلها إليها شيئاً - ولا حتى السبحة - قبل رحيلي. إن أشخاصاً كثيرين ساءت حالتهم إلى هذا الحد ثم استرجعوا عافيتهم.

ثم تابع قائلاً: سأخبركما كيف مات مورستان. كان يعاني منذ سنوات من ضعف في القلب، لكنه أخفى الأمر عن الجميع كنت وحدي أعرف الحقيقة. أثناء وجودنا في الهند تمكّنا، خلال مجموعة من الظروف الاستثنائية، من الحصول على كنز هام. حملته معي إلى انكلترا، وليلة وصوله أتى مورستان إليّ يطالبني بحصته. وصل إلى المحطة حيث لاقاه مرافقي المخلص لال شاوذر الذي مات الآن، واصطحبه إلى هذا البيت. اختلفت مع مورستان حول طريقة اقتسام الكنز، وتبادلنا الكلمات القاسية. انتفض مورستان واقفاً في نوبة غضب حاد، ووضع يده فجأة على جبينه، صار وجهه بلون قاتم ووقع إلى الوراء، فسقط رأسه على زاوية صندوق الكنز. حين اقتربت منه تملكني الذعر حين وجدته قد فارق الحياة.

لفترة طويلة جلست أمامه مذهولاً، حائراً فيما يجب عليّ ان

أفعله، كان تصوّري الأول بالطبع ان أطلب المساعدة؛ لكنني كنت على يقين بأنني سوف أكون المتهم في هذه الجريمة. وفاته أثناء الخلاف، والجرح البليغ في رأسه، عنصرا اتهام مباشر لي. بالاضافة إلى ان التحقيق الرسمي سوف يتوصل بالتأكيد إلى المعرفة بوجود الكنز، وهذا ما كنت أود بالحاح ان أبقيه سراً. كان قد أخبرني أن أحداً لم يكن على علم بمجيئه إليّ، ولم يكن هناك من مبرر لأن يعرف أحد بذلك الآن.

«كنت لا أزال مستغرقاً في التفكير حين رأيت خادمي لال شاودر واقفاً في الباب. دخل بسرعة وأقفل الباب وراءه. قال لي: لا تخف يا صاحبي، لن يعرف أحد بأنك قتلته. دعنا نخبئه، ومن سيكشف الأمر؟ قلت له: أنا لم أقتله. هزّ لال شاودر برأسه وقال وهو يبتسم: لقد سمعت كل شيء يا صاحبي. سمعتهما تختلفان وسمعت الضربة. لكن شفّتي لن تنطقا بكلمة. الكل نائمون فلننتخلص منه معاً. كان هذا الكلام كافياً لإقناعي، فإذا كان خادمي لم يقتنع ببراءتي كيف سأتمكن من حمل اثني عشر تاجراً غيباً من المحلفين على الإقرار بذلك؟ تخلصت مع لال شاودر من الجثة في تلك الليلة، وفي غضون عدة أيام بدأت الصحف في لندن تثير مسألة اختفاء الكابتن مورستان الغامضة أنتما تدركان الآن بأنني لم أكن مسؤولاً عما جرى. إن الخطأ الذي ارتكبته لم يكن في اخفاء الجثة فقط بل وفي اخفاء الكنز أيضاً وتمسكي بحصّة مورستان. وأتمنى عليكما لأجل ذلك ان تصلحا الأمر. اقتربا مني أكثر. فالكنز مخبأ في...».

«في تلك اللحظة تغيّرت ملامحه بشكل مروّع، عيناه حدّقتا

بالفراغ وارتخى فكّه وصرخ بصوت لن أنساه: «أخرجاه من هنا! من أجل الله أخرجاه من هنا!» التفتنا سوياً إلى النافذة خلفنا حيث كان ينظر ورأينا وجهاً يتأملنا في الظلام. استطعنا رؤية الأثر الذي تركه أنفه حيث كان يلصقه على زجاج النافذة، كان الشعر يغطي وجهه، ذو لحية، وعيناه تنمان عن شراسة وحقد وتكادان تنطقان بالكراهية. أسرعت وأحيي نحو النافذة، لكن الرجل تمكّن من الهرب وحين عدنا إلى والدنا كان رأسه قد التوى جانباً وتوقف نبضه.

«في تلك الليلة بحثنا في الحديقة ولم نجد أي أثر للمتسلل سوى انه تحت النافذة في حوض الزهور كانت هناك آثار قدم واحدة. وأمام ضآلة ما وجدناه كدنا نعتقد ان الوجه الشرس والقاسي الذي رأيناه خلف النافذة كان من صنع خيالنا. لكننا ما لبثنا ان تأكدنا من وجود دليل آخر يثبت ان هناك مجموعات سرية تعمل من حولنا وجدت نافذة غرفة والذي مفتوحة عند الصباح، وقد تم البحث في خزانته وصناديقه، ووجدنا على صدره ورقة ألصقت بملابسه وقد كتب عليها بخط رديء. «عصابة الأربعة». ولم نعرف أبداً معنى العبارة ولا شخصية الزائر الغامض. وحسب معرفتنا فإن أيّاً من ممتلكات والذي لم يسرق، مع ان كل شيء كان على الأرض، وربطنا بالطبع بين هذه الحادثة وبين الخوف الذي عانى منه والذي خلال حياته، لكن الأمر لا يزال غامضاً تماماً بالنسبة إلينا».

توقف الرجل القصير القامة قليلاً ليعيد إشعال نارجيلته وأخذ ينفث الدخان وهو يفكر لبضع دقائق. كنا جميعاً نستمع إليه بشغف مأخوذين بحكايته الغريبة. وعند ذكر حادثة موت والدها

صار وجه الأنسة مورستان شاحب اللون، حتى ظننت انها ستفقد وعيها. لكنها استجمعت قواها وتناولت كوب ماء قدمته لها من ابريق الزجاج الفينيسي الموضوع على الطاولة. اسند شرلوك هولمز ظهره شارد الذهن وجفناه مسدلان على عينييه اللامعتين، حين نظرت إليه استغربت كيف يستطيع ان يشكو بمرارة من ان الحياة شيء مألوف. أمامنا الآن مشكلة سوف تكون امتحاناً قاسياً لذكائه، تطلع السيد تاديوس شولتو إلى كل واحد منا بكبرياء واضح من الأثر الذي تركته حكايته وتابع حديثه وهو يواصل التدخين بواسطة الأنبوب الطويل، قال:

«كنت وأخي، كما تتصورون بالطبع، مهتمين بموضوع الكنز الذي تحدث عنه والدي. مرت أسابيع وشهور ونحن نحفر وننقب في كل جزء من أجزاء الحديقة دون ان نكتشف شيئاً. وكان يثير غضبنا ان والدي كان على وشك البوح لنا بمكان الكنز لحظة وفاته. كنا نستطيع ان نقدر قيمة المجوهرات من المسبحة التي كان قد أخذها من الكنز. وحول هذه المسبحة تناقشت مع أخي برتلوميو، من الواضح ان اللآلئ كانت باهظة الثمن، وكان أخي يرفض التخلي عنها، لا بل أعترف أمامكم ان أخي يعاني قليلاً من نقطة ضعف والدي. فقد ظن اننا لو أعطينا المسبحة فإن هذا سيثير الأقاويل وسيجلب لنا المتاعب، ولم أتمكن من إقناعه سوى بالبحث عن عنوان الأنسة مورستان وإرسال لؤلؤة لها من المسبحة في فترات محددة حتى لا تشعر على الأقل بأنها في عوز».

قالت له الأنسة مورستان: «تلك كانت بادرة لطيفة منك. كنت طيباً للغاية».

رفع يده وكأنه يرفض الثناء على عمله وقال: «كنا وصيين على حقك، كنت أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية مع أن أخي برتلوميولم يكن يشاركني الرأي. كنا نملك الكثير من المال، وأنا لم أكن أرغب في المزيد. بالإضافة إلى أنه من غير اللائق التعامل مع آنسة شابة بأسلوب وضيع. «عدم اللياقة يفضي إلى الجريمة» هذه طريقة الفرنسيين المباشرة في تحديد الأمور وإيضاحها.

واشتد الخلاف بيننا حول هذا الموضوع فارتأيت أن أسكن وحدي، فغادرت بونديتشي لودج وأخذت معي ختمتغار العجوز وكذلك ويليامز. وعلمت البارحة أن حدثاً بارزاً قد حصل. لقد تم العثور على الكنز. بعثت مباشرة برسالة إلى الآنسة مورستان، ولم يبق أمامنا الآن سوى أن نقصد نوروود ونطالب بحصتنا. شرحت رأيي لأخي برتلوميو مساء أمس، لذلك فهو ينتظرنا مع أنه لن يرحب بقدمنا».

توقف السيد تاديوس شولتو عن الكلام وظل يرتعش وهو جالس على الأريكة الوثيرة. لزمنا جميعاً جانب الصمت والجميع يفكرون بالتطور الجديد الذي أسفرت عنه الأحداث، كان هولز أول واحد وقف وقال: «أجدت الحديث يا سيدي، من البداية وحتى النهاية. قد نتمكن من خدمتك في إلقاء بعض الضوء على الجزء الذي لا يزال غامضاً بالنسبة لك. لكن، كما أشارت الآنسة مورستان منذ قليل، الوقت متأخر ومن الأفضل أن ننطلق مباشرة وبدون تأخير».

عمد السيد شولتو مباشرة إلى لف أنبوب النارجيلة، وتناول من خلف الستارة معطفاً طويلاً تزيينه جدائل للأزرار وقبة من فرو الاستراكان. ووضع على رأسه قبعة من فرو الأرانب تتدلى منها

قطعتان لتغطية الأذنين، فلم يعد يظهر من جسمه سوى وجهه المضطرب والمرتعش.

قال وهو يتقدمنا عبر المرز: «صحتي ضعيفة ويبدو انني سأتحول إلى مريض بالوهم».

كانت العربة تنتظرنا في الخارج ويبدو ان تحركاتنا كانت مُعدّة سلفاً، لأن السائق انطلق بسرعة حال صعودنا. كان تاديوس شولتر يتابع الحديث بصوت أعلى من جلبة العجلات، فقال: «برتلومير انسان ذكي. كيف تظنون انه تمكن من العثور على الكنز؟ استنتج برتلوميو انه كان في مكان ما داخل البيت، فأخذ يبحث في كل الانحاء ولجأ إلى قياس كل المساحات بحيث لا يترك إنشاً واحد دون حساب. إلى جانب مجموعة من الحقائق اكتشف ان ارتفاع المبنى كان أربعة وسبعين قدماً، لكن عندما قام بجمع مقدار ارتفاع الغرف مع الانتباه للمساحة الفاصلة بينها والتي تأكد منها بواسطة الثقوب، لم يتمكن من الوصول بالمجموع إلى أكثر من سبعين قدماً، كانت هناك أربع اقدام ناقصة. وهذه لا بد انها موجودة في أعلى المبنى. قام بحفر سقف أعلى غرفة واخترق الجص والخشب، وهناك وقع على عليّة صغيرة كانت مغلقة تماماً ولا يعرفها أحد، يتوسطها صندوق الكنز مرفوعاً على عارضتين خشبيتين. قام بإنزاله عبر الحفرة إلى أرض الغرفة وأخذ يحصي قيمة المجوهرات التي يقدر بأن قيمتها لا تقل عن نصف مليون جنيه استرليني؟!

عند ذكر هذا المبلغ الضخم أخذ كل منا يحدّق مذهولاً بالآخر. فإذا تمكنا من تأمين حق الأنسة مورستان فإنها ستتحوّل من مربية محتاجة إلى الوريثة الأكثر ثراء في انكلترا. بالتأكيد وفي مثل

هذه الأحوال كان عليّ أن أفرح كصديق مخلص عند سماع هذه الأخبار، لكنني أخجل من القول أن الأنانية سيطرت على مشاعري وأن قلبي ثقل وكأنه رصاص في داخلي. ردّدت عدة عبارات متلعثمة للتهنئة ثم انزويت مكتئباً، وأطرقت رأسي ممتنعاً عن الاصغاء لثرثرة هذا الرجل الذي تعرفنا عليه للتو. من المؤكد أنه مصاب بوسواس المرض، استمعت إليه وأنا مستغرق في أفكاري وإلى السلسلة اللامتناهية من الأعراض والمعلومات التي أخذ يذكرها حول تركيبة وفعالية مجموعة كبيرة من عقاقير الدجالين، والتي كان يحمل بعضها في محفظة جلدية يضعها في جيبه. أتمنى لو ينسى النصائح الطبية التي قدمتها له، لأن هولز قال لي فيما بعد أنه سمعني أحذّره من خطورة تناول أكثر من نقطتين من زيت الخروع فيما أشرت عليه باستخدام الإستركنين بجرعات كبيرة كمسكن ومهما كان الأمر فإنني لم أشعر بالراحة إلّا عندما توقفت بنا العربة وترجل الحوذيّ لكي يفتح لنا الباب

قال السيد شولتو وهو يقدم لها ذراعه لتستند إليها وهي تهبط من العربة: «هذا هو يا آنسة مورستان بونديتشري لودج».

- ٥ -

مأساة

بونديتشي لودج

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة تقريباً حين وصلنا إلى المرحلة الأخيرة في مغامرتنا الليلية. كنا قد تركنا الضباب الرطب يحيط بالمدينة خلفنا، وأصبح الليل صافياً تقريباً. هبّت ريح دافئة من الغرب، وكانت غيوم واطئة تمرّ ببطء عبر السماء، والقمر يظهر خلسة من وراء الثغرات المتروكة بينها. كانت الرؤية سهلة لمسافة معقولة، لكن تاديوس شولتو تناول أحد المصابيح الجانبية من العربية لينير لنا الطريق على نحو أفضل.

يقع بونديتشري لودج على أرض واسعة يحيط بها سور مرتفع بني من الحجارة وقد ثبتت في أعلاه قطع من الزجاج المكسور. الباب الحديدي كان الوسيلة الوحيدة للدخول، ولذلك أخذ السيد شولتو يدق عليه بشكل متكرر وكأنه ساعي البريد. قال صوت فظ من الداخل: «مَنْ هناك؟».

— «هذا أنا يا ماكردو. لقد صرت تعرف طريقي في طرق الباب صوت تذرّ وخشخشة مفاتيح وصرير باب يفتح. شاهدنا رجلاً قصيراً واسع الصدر يقف في الباب وهو يحمل مصباحاً أصفر أشاح بنوره عن وجهه النأتى وعينييه المرتجفتين والمثلثتين ريبة.

– «أهذا أنت يا سيد تاديوس؟ من معك؟ لم تبلغني بشأن أحد آخر».

– «لا يا ماكمرديو، انك تذهلني! لقد أخبرت أخي البارحة بأنني سوف أصطحب عدداً من الأصدقاء».

– «لم يخرج من غرفته طوال اليوم، يا سيد تاديوس ولا أوامر لدي. أنت تعرف جيداً أن عليّ أن أراعي الأوامر. أستطيع أن أتركك تدخل، لكن أصدقاءك يجب أن يتوقفوا حيث هم».

كان هذا الحاجز غير متوقع. نظر تاديوس شولتو حوله بأسلوب مرتبك ويائس، وقال: «هذا تصرف غير مقبول يا ماكمرديو، فأنا كفيل بهم وهذا يجب أن يكون كافياً. ثم هناك الأنسة أيضاً، إنها لا تستطيع الانتظار على الطريق العام في هذه الساعة».

قال البواب بتصلب: «آسف يا سيد تاديوس، قد يكون هؤلاء أصدقاء لك، لكنهم ليسوا أصدقاء لسيدي. إنه يدفع لي جيداً مقابل ما أقوم به، وأنا سوف أقوم بعملي. أنا لا أعرف أيّاً من أصدقائك».

رد عليه شرلوك هولمز بصوت لطيف: «بلى يا ماكمرديو، لا أعتقد انك نسيتني، ألا تذكر ذلك الهاوي الذي كان منافساً لك في ثلاث جولات في نادي اليسون في المباراة التي ربحتها منذ أربع سنوات؟».

قهقه الملاك قائلاً: «السيد شرلوك هولمز! يا إلهي! وهل من الممكن ألا أعرفك؟ لو انك اقتربت مني بدلاً من وقوفك صامتاً وسددت إلي فكي تلك الضربة لكنت عرفتكم بدون تردد. أنت واحد

من الذين أضاعوا مواهبهم، أجل! كان بإمكانك الوصول إلى القمة لو أنك اخترت الملاكمة».

قال هولز ضاحكاً: «هل سمعت يا واتسون، لو فشلت في كل نشاطاتي ستكون لديّ دائماً مهنة علمية تفتح أبوابها أمامي. والآن أنا متأكد ان صديقنا لن يدعنا نقف هنا في هذا البرد».

أجاب قائلاً: أرجوك تفضل بالدخول يا سيدي، تفضل بالدخول - أنت وأصدقائك. آسف جداً يا سيد تاديوس لكن الأوامر المعطاة إليّ كانت شديدة.. كان عليّ التأكد من أصدقائك قبل السماح لهم بالدخول».

سلكنا ممراً مفروشاً بالحصى يقطع أرضاً مقفرة ليصل إلى بيت ضخم، شكله مربع وعادي؛ كان معتماً إلا حيث انعكس ضوء القمر على زجاج نافذة العلية. أصابتني قشعريرة من هذا البيت الشاسع والظلام الذي يكتنفه وصمته الكلي. حتى تاديوس شولتو بدا منفعلاً والمصباح يهتز في يده، قال:

«أنا لا أفهم ما يحدث، لا شك ان في الأمر خطأ ما. لقد أكدت لبرتلوميو بأننا سنأتي، ومع ذلك ليس هناك أي ضوء في الداخل. لا أعرف ما الذي يحدث».

سأله هولز: «هل يفضل ترك المبنى دائماً على هذا النحو؟»
- «أجل؛ لقد اتّبع عادة والدنا، كان ابنه المفضل، وأنا أعتقد أحياناً بأن والدنا أطلعته على أمور لم يطلعني عليها، هذه نافذة غرفة برتلوميو حيث ينعكس ضوء القمر. إنه نور ساطع لكنني لا أعتقد ان هناك إضاءة من الداخل».

قال هولز: «هذا صحيح. لكنني أرى وميض ضوء في تلك النافذة الصغيرة قرب الباب».

«هذه غرفة مدبرة المنزل السيد برنستون. ستخبرنا الآن ماذا يجري؟ أرجو أن تنتظروني هنا لدقيقة أو اثنتين لأن دخولنا معاً قد يثير خوفها خاصة إذا لم يكن لديها علم مسبق بمجيئنا. اسمعوا! ما هذا الصوت؟».

رفع المصباح بيده المرتجفة فأخذت دوائر الضوء تخفق وتضطرب من حولنا. أمسكت الأنسة مورستان بيدي، فيما كنا نسترق السمع. من داخل ذلك البيت المعتم تسرب عبر الظلام صوت حزين ومؤلم وأنين حاد لامرأة مذعورة.

قال شولتو «إنها السيدة برنستون. ليس في البيت امرأة سواها. انتظروني هنا، سأعود بعد قليل».

أسرع نحو الباب وقرعه بطريقته المميزة. شاهدنا امرأة طويلة، كبيرة في السن تفتح له الباب بدت سعيدة لمجرد رؤيته. - «آه يا سيدي تاديوس؛ أنا سعيدة بحضورك! أنا في غاية السعادة يا سيدي تاديوس»

سمعنا عبارات الفرح التي أخذت ترددها إلى أن أغلقت الباب وغاب صوتها في نغم رتيب خافت.

كان مرشدنا قد ترك لنا المصباح. رفعه هولز قليلاً وحركه ليحدق ملياً في البيت وفي أكوام النفايات الكبيرة التي تملأ الأرض. وقفت بجانب الأنسة مورستان ويدها في يدي. لا شك أن الحب احساس رائع وبارع، فنحن لم نلتق قبل هذا اليوم ولم نتبادل كلمة عاطفية

واحدة أو حتى نظرة، وفي ساعة عصبية سعت يدانا للتلاقي. أثار هذا الوضع دهشتي فيما بعد، لكنني لحظة حدوثه شعرت بأن انجذابي نحوها مسألة عادية، وهي أيضاً أكدت لي مراراً بأنها شعرت بالحاجة إليّ طلباً للاطمئنان والحماية. وقفنا كطفلين يداً بيد، يغمر قلبينا الشعور بالسكينة رغم كل الأشياء المعتمة التي كانت تحيط بنا.

قالت وهي تنظر حولها: «يا له من مكان غريب! كأن كل حيوانات الخلد في انكلترا تركت هنا. رايت مشهداً مشابهاً لهذا على سفح تلة بالقرب من بلأرارت حيث كان المنقبون يعلمون».

قال هولز: «وهذه هي مخلفات الباحثين عن الكنز: يجب ان نتذكر انهما أمضيا ست سنوات في التنقيب. ليس غريباً إذا ان تبدو الأرض مليئة بالحفر».

في تلك اللحظة فتح باب البيت وخرج السيد تاديوس شولتو مسرعاً، وبدأ الذعر واضحاً في عينيه. قال: «هناك أمر مريب بالنسبة لبرتلوميو. أنا خائف جداً! أعصابي لا تتحمل كل هذا».

كاد ينتحب وهو يقول ذلك من شدة خوفه، وبدأت على وجهه الضعيف إستغاثة طفل مذعور.

قال هولز بأسلوبه الحازم والقوي: «فلندخل إلى البيت». قال شولتو متوسلاً: «أرجوكم ان تفعلوا ذلك! إنني بالفعل لم أعد قادراً على إعطاء التوجيهات».

تبعناه إلى غرفة مدبرة المنزل، التي كانت تقع إلى اليسار من الممر. كانت السيدة العجوز تذرع المكان جيئةً وذهاباً بخوف

واضطراب وهي تفرك أصابعها، لكن وجود الأنسة مورستان هذا من روعها، فصرخت في نوبة هستيرية: «فليبارك الله وجهك الهادىء والعذب. لقد ارتحت عند رؤيتك. لكن هذا اليوم كان قاسياً عليّ إلى أبعد حد».

تقدمت منها رفيقتنا ورّيت على يديها النحيلتين اللتين ترك العمل فيهما أثراً، وقالت لها بضع كلمات حملت شيئاً من المواساة والتعاطف مما أعاد اللون إلى خديها الشاحبين. قالت تشرح لنا الأمر: «أقفل السيد على نفسه باب غرفته ولم يعد يرد عليّ. مضى اليوم وأنا أنتظر إشارة منه، لأنه يفضل الوحدة غالباً؛ لكنني منذ حوالي ساعة شعرت أن في الأمر ما يبعث على الريبة، فصعدت إلى الطابق الأعلى ونظرت خلصة عبر ثقب المفتاح. يجب أن تصعد يا سيد تاديوس، يجب أن تصعد وترى بنفسك. سبق لي ورأيت السيد برتلوميو شولتو في حالات فرح وحزن لمدة عشر سنوات طويلة، لكنني لم يسبق لي أن رأيته في هذه الحالة».

حمل شلوك هولز المصباح ومشى أمامنا، أما السيد تاديوس فإنه كان في حالة من الذعر، أسنانه تصطكّ ورجلاه ترتجفان لدرجة أنني أمسكت بذراعه ونحن نصعد السلم. تناول هولز العدسة مرتين من جيبه وأخذ يتفحص بعناية علامات بدت لي وكأنها مجرد بقع غبار على الحصير المصنوع من جوز الهند والذي كان يستخدم بساطاً للسلم، كان ينتقل ببطء من درجة إلى أخرى وهو يخفض المصباح ويحدق في عدسته يميناً وشمالاً، وظلّت الأنسة مورستان مع مدبرة المنزل الخائفة.

الجزء الثالث من السلم يفضي الى ممرّ طويل نسبياً، تزيّن جداره

الأيمن سجادة هندية ضخمة، وفي الجانب الأيسر ثلاثة أبواب. تابع هولز تقدمه في الممر بخطواته النظامية والبطيئة، وكنا نحن نمشي في إثره، وظلالنا السوداء الطويلة ترتد وراءنا عبر الممر. كنا نقصد الباب الثالث. قرع هولز الباب دون جدوى، ثم حاول أن يدير المقبض ويفتحه بالقوة؛ لكنه كان موصداً من الداخل بواسطة مزلاج عريض وقوي كما رأينا عندما رفعنا المصباح بقربه. ترك المفتاح الذي أدير فراغاً بسيطاً في الثقب؛ انحنى شرلوك هولز لينظر من خلاله، ثم وقف مباشرة وهو يتنفس بسرعة.

لم يسبق لي أن رأيته متأثراً إلى هذا الحد؛ قال لي: «يبدو الأمر غريباً يا واتسون. ما رأيك؟».

انحنيت ونظرت ثم تراجعنا مذعوراً. ضوء القمر كان يغمر الغرفة بنور فيه رجرجة وغموض رأيت أمامي مباشرة رأساً يحدّق فيّ، وقد بدا معلقاً في الجوّ وكلّ شيء تحته مغمور بالظلام - إنه يشبه تماماً وجه رفيقنا تاديوس. الرأس الشامخ واللامع نفسه بدائرة الشعر الأحمر المجعد، والملامح الشاحبة نفسها. ارتسمت على الوجه ابتسامة مخيفة، وتكشيرة ثابتة غير طبيعية كانت تثير في تلك الغرفة الهادئة صدمة أكثر من أي عبوس أو التواء في قسمة الوجه. كان الشبه بين الوجهين مذهلاً. لدرجة إنني التفت نحو صديقنا الصغير لأتأكد من أنه موجود معنا. ثم تذكرت بأنه أخبرنا بأنه وأخاه توأمان.

قلت لهولز: «هذا فظيع! ماذا علينا أن نفعل؟».

قال: «يجب أن نفتح الباب». واندفع بكلّ ثقله نحوه، أصدر صريراً لكنه ظلّ مغلقاً. حاولنا ثانية أن ندفعه معاً وبكلّ قوانا،

فسمعنا طقطقة، ثم بحركة سريعة تمكنا من فتحة، لنجد أنفسنا داخل غرفة برتولوميو شولتو.

بدأت الغرفة وكأنها أعدت لتكون مختبراً كيميائياً. على الحائط المواجه للباب صُفت مجموعتان من قوارير مقفلة بسدّات زجاجية، وعلى الطاولة وضعت بدون ترتيب عدة مواقد، وأنايب اختبار وأدوات معوّجة. وفي الزوايا وضعت دامجانات الأسيد في سلال خاصة يبدو أن إحداها كانت ترشح أو أنها مكسورة لأن خيطاً من السائل الداكن تسرّب منها، والهواء كان مثقلاً برائحة حادة تشبه رائحة القطران. في أحد الجوانب وضع سلم وسط ركام مبعثر من الخشب والجصّ، وفوقه وُجدت فجوة في السقف تتسع لرجل أن يمرّ عبرها. وإلى جانب السلم ألقى حبل طويل ملفوف بإهمال.

على كرسي خشبي بجانب الطاولة كان سيّد البيت جالساً بلا حراك، رأسه مال على كتفه الأيسر وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الشبحية الغامضة. كان متصلّباً وبارداً وبدأ واضحاً أنه فارق الحياة منذ ساعات عديدة. بدا لي أن الأمر لم يقتصر على ملامحه بل أن كل أعضائه كانت ملوّهة ومشوّهة بالأسلوب المخيف نفسه. وبجانب يده كانت على الطاولة آلة غريبة - عصا بنية اللون متقاربة الألياف لها رأس حجري يشبه المطرقة، تمّ تثبيته بشكل بدائي بواسطة خيط قنّب خشن. وبالقرب منها وضعت ورقة ممزقة من دفتر ملاحظات عليها خربشة من بضع كلمات. تأملها هولز أولاً ثم أعطاني إياها.

قال وقد ارتفع حاجباه بحركة موحية: «أترى هذا؟».

وفي ضوء المصباح قرأت الورقة فارتعشت من الخوف: «عصابة الأربعة».

سألته قائلاً: «بحقّ الله، ما معنى كلّ هذا؟».

قال وهو ينحني قليلاً فوق الجثة: «هذا يعني أن في الأمر جريمة. آه، هذا ما كنت أتوقعه. انظر هنا».

وكان يشير إلى شيء يشبه شوكة طويلة سوداء انغرزت في الجلد فوق الأذن.

قلت: «يبدو أنها شوكة».

- «وهي شوكة تستطيع أن تنتزعها. لكن كن حذراً، لأنها مسمومة».

حملتها بين الإصبع والابهام، وقد خرجت من الجلد بسهولة حتى أنها بالكاد تركت أثراً. بقعة دم صغيرة تجمعت مكان الثقب. قلت: «كلّ هذا لغز لا أجد له حلاً وهو يزداد غموضاً لا وضوحاً».

قال: «بل على العكس من ذلك انه يزداد وضوحاً في كلّ لحظة. انني بحاجة الى بضع حلقات ناقصة لأحصل على قضية مترابطة».

كدنا ننسى وجود رفيقنا منذ دخولنا الغرفة. كان لا يزال واقفاً في الباب، صورة ناطقة للرب، يفرك يديه ويتنوح بينه وبين نفسه. لكنه صرخ فجأة يشكو: «اختفى الكنز، لقد سرقوا كنزه! أنزلناه من خلال هذه الفتحة. أنا ساعدته على ذلك ا كنت آخر شخص رآه القدر تركته هنا البارحة، وسمعتة وهو يغلق الباب وأنا أهبط السلم».

- «في أية ساعة كان ذلك؟».

— «كانت الساعة العاشرة. لقد مات هو الآن، وسوف تأتي الشرطة. وتثار حولي الشكوك، فيما حدث، أجل، أنا متأكد من ذلك. لكنكما لا تعتقدان ذلك بالطبع! هل من المعقول أن أحضركما إلى هذا المكان لو أنني متورط فيما حدث؟ يا الهي، يا الهي، أعرف أنني في طريقي إلى الجنون!».

هزّ يديه وضرب الأرض برجله وكأنه أصيب بنوبة تشنّج. قال له هولمز بهدوء وهو يضع يده على كتفه: «لا داعي للخوف يا سيد شولتو. إعمل بنصيحتي وانهب بالعربة إلى مركز الشرطة وبلغ عن الحادثة، واعرض عليهم مساعدتك في كل المجالات. سوف ننتظر رجوعك هنا».

وافق الرجل الصغير كما لو أنه مخدر، وسمعنا وقع خطاه المرتبكة على السلم في الظلام.

- ٦ -

شرلوك هولمز
يقدم عرضاً

قال لي هولز وهو يفرك يديه: «والآن يا واتسون، أمامنا نصف ساعة فلنستخدمها جيداً، القضية بالنسبة لي، كما أخبرتك، تكاد تكتمل؛ لكن يجب أن لا نقع في الخطأ بسبب الثقة المفرطة، تبدو القضية بسيطة الآن، لكن ربما يكون فيها ما هو أعمق من ذلك».

قلت مستغرباً: «بسيطة!».

قال: «بالتأكيد». وبدأ كأستاذ في الطبّ يشرح درساً لطلابه حين تابع: «اجلس في الزاوية هناك كي لا تزيد آثار قدميك الأمور تعقيداً، والآن الى العمل! أولاً، كيف دخل هؤلاء الأشخاص، وكيف خرجوا؟ لم يفتح باب الغرفة منذ ليلة البارحة، فكيف تسنى لهم ذلك من خلال النافذة؟».

حمل المصباح الى جوار النافذة وهو يعدّد ملاحظاته بصوت عالٍ ولكن لنفسه أكثر مما كان يتوجه بها إليّ: «إطار النافذة صلب، ولا توجد مفاصل على الجانبين. فلنفتحها، لا أنبوب ماء قريب، والسطح بعيد، لكن رجلاً تمكّن من الوصول الى النافذة. أمطرت السماء قليلاً في الليلة الماضية، هذا أثر قدم بارز على عتبة النافذة، وهنا علامة دائرية موحلة، وهنا أيضاً على أرض الغرفة، وكذلك

بجانب الطاولة، انظريا واتسونا ! هذا بالفعل عرض جيد» .

نظرت الى كتل الوحل الدائرية وقلت له: «هذه ليست آثار قدم» .

- «إنها شيء أثمن من ذلك بالنسبة لنا. إنها أثر رجل خشبية.
انظر هنا على عتبة النافذة هذه علامة حذاء ثقيل كعبه من المعدن،
وبجانبها علامة قدم خشبية»

- «إذاً الرجل كان برجل خشبية» .

- «هذا صحيح. ولكن كان هناك شخص آخر - حليف قادر
ومتكّن. هل تستطيع أن تتسلق هذا الجدار يا دكتور؟» .

نظرت من النافذة المفتوحة، كان القمر لا يزال يضيء تلك الزاوية
من البيت. كنا على ارتفاع حوالي ست أقدام عن الأرض، ومن
مكاني لم أر أي شيء تستطيع اليد الامساك به، ولا حتى شقاً بين
حجارة الآجر.

قلت له: «هذا مستحيل تماماً» .

- «إنه كذلك ما لم تكن هناك مساعدة من أحد. ولكن افترض
أن لك صديقاً في الداخل يرمي لك بهذا الحبل القوي، الذي أراه في
الزاوية، بعد أن يربط طرفه الى هذه الحلقة المثبتة في الحائط، عندها
يتمكن الرجل إذا كان نشيطاً من الصعود حتى برجله الخشبية،
وهو نزل بالطبع بالطريقة نفسها، شريكه رفع الحبل وفقه من
الحلقة، وأغلق النافذة وأقفلها من الداخل، ثم خرج بالطريقة التي
دخل بها. وهناك ملاحظة صغيرة تجدر الإشارة اليها (قال ذلك وهو
يشير الى الحبل)، إن صاحب الرجل الخشبية لم يكن بحاراً
محترفاً، لم تكن يداه صلبتين، فأنا أستطيع بواسطة العدسة أن

أتبين عدة آثار للدماء، خاصة عند نهاية الحبل، ويبدو أنه انزلق في تلك المرحلة وبسرعة جعلت الحبل ينتزع الجلد عن يديه»

قلت: «هذا تحليل جيد، لكن الأمر يبدو أكثر غموضاً، فمن هو هذا الشريك المجهول وكيف تمكن من الدخول الى الغرفة؟».

قال هولمز وهو يفكر: «أجل، الشريك! هناك عناصر مهمة تتعلق بهذا الشريك. انه يجعل القضية أكثر من عادية. أظن أن هذا الشريك سيضيف مآثر فريدة في سجلات الجريمة في هذا البلد - مع أن قضايا مماثلة جاءتنا من الهند، وإذا أسعفتني الذاكرة فأنها كانت من سنيغامبيا».

عدت لأكرر تساؤلاتي: «لكن كيف دخل؟ الباب مقفل، والنافذة لا يمكن الوصول اليها. هل فعل ذلك عبر المدخنة؟».

- «الموقد صغير جداً، لقد فكرت في هذا الاحتمال».

قلت بالحاح: «كيف تسنى له ذلك إذا؟».

قال وهو يهز رأسه: «أنت لا تطبق منهجي في الإدراك. كم مرة قلت لك بأنك حين تحذف ما هو مستحيل، يجب أن يكون الباقي هو الحقيقة مهما بدا بعيد الاحتمال؟ نحن نعلم بأنه لم يدخل عبر الباب، ولا النافذة ولا المدفأة. ونعلم أيضاً أنه لم يكن مختبئاً في هذه الغرفة لأنه لا يوجد مخبأ معقول. من أين أتى إذا؟».

أجبت بحماس: «أتى عبر الحفرة في السقف!».

- «بالطبع، لا شك أنه فعل ذلك. لو تفضل وتحمل لي المصباح، سوف نوسّع نطاق بحثنا الى الغرفة العليا - الغرفة السرية التي وجد فيها الكنز».

صعد درجات السلم، وأمسك بعارضة خشبية رافعاً جسمه الى داخل العلية. ثم تمّد ليلتقط المصباح ويحمله لكي أتمكن من اللحاق به.

كان طول العلية حوالي عشرة أقدام وعرضها ستة. أرضها كانت من العوارض الخشبية تفصل بينها ألواح رقيقة مكسوة بالجص، حتى أن من يريد المتي في داخلها عليه أن ينتقل من عارضة الى أخرى وكان السقف ينتهي في رأس هو بالتأكيد هيكل السطح الفعلي، لم يكن هناك أثاث وقد تكوّنت على الأرض طبقة كثيفة من الغبار المتراكم منذ سنوات.

قال شرلوك هولمز وهو يضع يده على الحائط المنحني: «أترى، هذا ما أردنا. إنه باب يفضي الى سطح المبنى القليل الانحدار. هذا إذا الطريق الذي سلكه الشخص رقم واحد للدخول، دعنا نبحث عن آثار أخرى تدلّنا عليه».

أدار المصباح نحو أرض الغرفة، وللمرة الثانية في تلك الليلة شاهدت نظرة ذهول ودهشة تملأ وجهه، وحين نظرت الى حيث كان ينظر شعرت بدوري ببرد شديد. كانت الأرض مليئة بآثار قدم حافية - آثار واضحة ومعالمها بارزة تماماً، لكن حجمها بالكاد يصل الى نصف حجم قدم رجل عادي.

قلت هامساً: «هولمز، الذي اقدم على هذا الفعل الشنيع كان طفلاً».

استجمع قواه في الحال وقال: «وأنا ارتبكت للوهلة الاولى، لكن الأمر يبدو طبيعياً الآن، ذاكرتي خانتني، أو أنه كان يجدر بي أن

أتوقعه . لم يعد هناك ما يخدمنا هنا فلننزل!

سألته بحماس حين وصلنا الى الغرفة السفلى: «ماذا تقول عن آثار الأقدام؟».

قال بشيء من التبرّم: «يا عزيزي واتسون جرب أن تحلّ بنفسك. أنت تعرف أسلوبى، هذه فرصة لكى تطبقه وتقارن النتائج».

أجبتة: «لا أستطيع أن أجد تفسيراً يشمل الوقائع».

قال بطريقة غير لبقّة: «سيتضح كل شيء سريعاً، أعتقد أنه لم يعد هنا ما يثير الاهتمام، لكنني سوف أتابع البحث».

حمل عدسته وماسورة للقياس ونزل على ركبتيه يقطع الغرفة وهو يقيس ويتأمل ويتفحص. لم يكن أنفه الدقيق إلا على ارتفاع مسافة قليلة عن الأرض؛ وكانت عيناه الصغيرتان غائرتين ولا معتين مثل عيني طائر، حركاته السريعة والصامتة والمناكرة تشبه حركات الكلب البوليسي المدرب وهو يحاول أن يتتبع رائحة معينة. ولم أتمالك نفسي من التفكير أنه كان سيصبح مجرماً مخيفاً لو أنه وجّه معرفته وذكاءه ضدّ القانون بدلاً من تكريسها لحمايته. فيما كان منهمكاً في التفتيش الدقيق كان يتمتم لنفسه؛ وأخيراً، رفع صوته في صرخة تعبّر عن فرجه، وقال:

«نحن بالتأكيد محظوظون، لن تكون لدينا مشاكل كثيرة بعد الآن، يبدو أن الشخص رقم واحد داس لسوء حظه في

الكرييسوت(*)، تستطيع أن ترى أثر جزء من قدمه الصغيرة هنا بجانب هذا السائل البشع الرائحة، الزجاجة مكسورة وبدأت تتسرب محتوياتها على الأرض».

سألته: «وماذا يعني ذلك؟».

قال: «لقد أمسكنا به، هذا كل ما في الأمر؛ أنا أعرف كلباً يستطيع أن يتتبع تلك الرائحة حتى نهاية العالم. فإذا كانت الكلاب تستطيع أن تتبع رائحة سمكة السردين من مساحة شاسعة، فإلى أي مدى يستطيع كلب صيد مدرب أن يتتبع رائحة حادة كهذه؟ تبدو المسألة وكأنها عملية حساب معقدة... اهلاً ها قد حضر ممثلو القانون المعتمدون».

وصلت الى مسامعنا أصوات أقدام ثقيلة وصيحات مرتفعة وسمعنا صوت باب المدخل ينغلق محدثاً صوتاً عالياً.

قال هولمز: «بسرعة قبل وصولهم، ضع يدك هنا على ذراع هذا الرجل المسكين، وعلى رجله هنا. بماذا تشعر؟».

قلت: «العضلات متصلبة كالخشب».

- «هذا صحيح. إنها في حالة تقلص تام، أكثر من التيبس العادي الذي يصيب الجسد بعد الموت، بالإضافة الى هذا التشويه في الوجه، وهذه الابتسامة الرهيبة، ماذا تستنتج من كل هذا؟».

قلت: «الموت من مركب نباتي شبه قلوي، مادة فعّالة تشبه

(*) الكرييسوت سائل زيتي يستحضر بتقطير القطران ويستخدم في هياينة الخشب ومعالجة السعال.

الاستركنين والتي تؤدي الى الاصابة بالكزان.

« هذا ما تبادر الى ذهني منذ اللحظة الاولى التي شاهدت فيها عضلات وجهه المشدودة. وعند الدخول الى الغرفة أخذت أبحث عن الوسائل التي استخدمت لإدخال السم الى الجسم، وكما رأيت فقد عثرت على شوكة غرزت مباشرة في جلدة الرأس أو أطلقت عليها بدون جهد كبير، وتلاحظ أن الجزء المصاب هو الموجّه نحو الحفرة في السقف في حال أن الرجل كان يجلس منتصباً في كرسيّه. والآن افحص هذه الشوكة».

تناولتها بحذر شديد وحملتها أمام ضوء المصباح. كانت طويلة وحادة وسوداء، وبدت مصقولة عند طرفها وكأنها طليت بمادة صمغية، أما الطرف الحاد فقد تم تشذيبه وتدويره بواسطة سكين

سألني «هل هذه شوكة انكليزية».

«لا، بالطبع لا».

«مع كلّ هذه المعطيات يجب أن تتمكن من التوصل الى استنتاج صحيح. لكن القوى النظامية وصلت، ويستطيع الاحتياط أن ينسحب».

أخذت الأصوات تعلو وتقترب في الممرّ فيما كان هولز يتكلم. ودخل علينا بخطوات ثقيلة رجل بدين وقوي يرتدي بدلة رمادية أحمر الخدين، ضخّم الجسم، ممثلي، عيناه صغيرتان وبرّاقتان برزقا من بين التجاعيد المنتفخة والمتورّمة. دخل وراءه مفتش يرتدي بدلة رسمية وتبعه تاديوس شولتو الذي كان الاضطراب لا يزال بادياً عليه.

قال بصوت قوي أجش: «هذه قضية! هذه قضية مهمة! لكن من هؤلاء؟ هذا البيت يبدو وكأنه جحر أرائب».

قال هولز بهدوء: «أعتقد أنك تتذكرني يا سيد أتلناي جونز».

قال وهو يتنفس بصعوبة: «لا شك أنني أذكرك! أنت السيد شرلوك هولز واضع النظريات، أتذكرك! أنا لن أنسى أبداً يوم ألقيت علينا محاضرة حول الأسباب والاستنتاجات والنتائج في قضية جوهرة «بيشوب غايت»، من المؤكد أنك وضعتنا على الطريق السليم! لكن أنت تقر الآن أنك توصلت للحل بفضل الحظ الجيد لا التوجيه الجيد».

- «لم يتطلب الأمر أكثر من عملية استنتاج بسيطة».

- «هيا الآن، هيا! يجب عدم الخجل من الاعتراف بذلك. لكن ماذا لدينا هنا؟ فعل مشين! فعل مشين! هذه حقائق واضحة - لا مجال للنظريات، من حسن حظي أنني كنت في نورود من أجل قضية أخرى! كنت في المركز عند وصول الخبر، ما الذي قتل الرجل باعتقادك؟».

قال هولز بجفاف: «لا تبدو هذه القضية واضحة كي أعد لها تصوراً نظرياً».

- «لا، لا، نحن لا ننكر بأنك كنت تصيب الهدف أحياناً، يا الهي! الباب موصد، لقد فهمت. مجوهرات بقيمة نصف مليون جنيه مفقودة، كيف كانت النافذة؟».

- «مغلقة! لكن هناك آثار قدم على العتبة».

- «حسناً، حسناً، إذا كانت موصدة فالآثار لا علاقة لها بالامر،

هذا هو التفكير السليم. قد يكون الرجل مات في نوبة؛ لكن تبقى المجوهرات المفقودة. آه! لقد فهمت هذه الإلتماعات المفاجئة تنقابني أحياناً - أرجوك أن تخرج أيها الرقيب، وأنت أيضاً يا سيد شولتو. صديقك يستطيع أن يبقى - ماذا تعتقد يا هولنز؟ كان شولتو باعترافه مع أخيه ليلة البارحة. وأخوه مات في نوبة، فتركه شولتو وحمل الكنز معه، ما رأيك؟».

- «ثم نهض الرجل الميت بهدوء وأغلق الباب من الداخل؟».

- آه! هنا خلل ما. فلنفكر قليلاً في الأمر، تاديوس شولتو كان موجوداً مع أخيه... حصل بينهما خلاف؛ هذا ما نعرفه. الأخ مات والمجوهرات اختفت. هذا أيضاً نعرفه. لم ير أحد الأخ منذ تركه تاديوس. لم ينم أحد في سريره. تاديوس بالتأكيد في غاية الاضطراب. شكله ليس حسناً، على ما يرام. إنني أرمي شبكتي حول تاديوس. والشبكة بدأت تضيق عليه الخناق».

قال هولنز: «أنت لم تملك الوقائع بعد، هذه الشظية الخشبية وهي بالتأكيد مسمومة، كانت في جلدة رأسه حيث تستطيع أن ترى أثرها؛ هذه البطاقة، وعليها كتابة كما ترى، كانت على الطاولة بجانب هذه الآلة الغريبة ذات الرأس الحجرية. كيف تدخل هذه العناصر في تقديرك؟».

قال المفتش السمين بغرور: «إنها تؤكد على صحتها، البيت مليء بالتحف الهندية الغريبة. تاديوس حمل هذه الأداة معه، وإذا كانت الشظية مسمومة فإن تاديوس يكون قد استخدمها لأهداف إجرامية مثل أي شخص آخر، السؤال الوحيد هو، كيف خرج؟ آه، بالتأكيد، هناك حفرة في السقف».

تحرك بنشاط، يتناسب مع ضخامته، وصعد درجات السلم وتمكّن من ادخال جسمه عنوة الى العلّة، ومباشرة بعد ذلك سمعنا صوته يعلن بفرح كبير أنه عثر على الباب الذي يفضي الى السطح. قال هولز وهو يهزّ كتفيه: «يبدو قادراً على العثور على شيء. ويعرف حالات عرضية من الوضوح الذهني. ليس هناك أكثر غباءً وإزعاجاً من أولئك الذين يدّعون النباهة».

قال أتلنابي جونز وهو ينزل على السلم: «أرأيت! يبدو أن الحقائق أفضل من النظريات. لقد تأكدت وجهة نظري في القضية. هناك باب يؤدي الى السطح وهو مفتوح قليلاً».

- «أنا فتحته».

قال بشيء من الخيبة: «آه، حقاً! أنت رأيته إذاً؟ حسناً، بغضّ النظر عن الشخص الذي رآه، فإنه يثبت لنا كيفية هروب الجاني. أيها المفتش!».

ردّ المفتش من الممر: «نعم سيدي».

- «اطلب من السيد شولتو أن يحضر أمامي. يا سيد شولتو من واجبي أن أحذرك من أن أي شيء تقوله الآن قد يستخدم ضدك. إنني ألقى القبض عليك باسم الملكة وأتهمك بالتورط في مقتل أخيك».

صرخ الرجل الصغير وهو ينظر إلينا. «لقد انتهى الأمر! ألم أقل لكما!».

ردّ هولز قائلاً: «لا تتضايق كثيراً يا سيد شولتو، اعتقد أنني

أستطيع التعهد بتبرئتك من هذه التهمة».

قال المفتش بحدة: «لا تعد كثيراً يا واضح النظريات، لا تعد كثيراً، قد تجد الأمر أكثر صعوبة مما تعتقد».

- «أنا لن أكتفي بتبرئته يا سيد جونز، بل وسأقدم لك هدية بإسم وبأوصاف أحد الشخصين اللذين كانا موجودين في هذه الغرفة الليلة الماضية. اسمه، وأنا متأكد منه، هو جونثان سمول ان رجل بمستوى ثقافي بسيط، صغير البنية، نشيط الحركة، ورجله اليمنى مبتورة وله رجل خشبية أعطيت من الداخل. ولحذائه الأيسر نعل قديم قاس، واطار حديدي حول الكعب. انه رجل في خريف العمر، لوحت الشمس بشرته وسبق له أن أدين. هذه الايضاحات القليلة قد تكون مفيدة لك، بالاضافة الى أنه فقد كمية من الجلد الذي يغطي باطن يده. أما الرجل الآخر».

سأل أتلناي جونز بسخرية: «آه! الرجل الآخر؟» لكنني لاحظت مباشرة أنه متأثر بأسلوب هولز البالغ الدقة.

قال شرلوك هولز متراجعاً: «انه شخص غريب الأطوار، أتمنى ان أتمكن من تقديم الاثنين اليكم في فترة قريبة. أود أن أتحدث اليك يا واتسون».

قادني الى السلم الداخلي وقال: «هذا الحدث غير المتوقع جعلنا نتخلي عن الهدف الأساسي لزيارتنا».

أجبتة: «كنت في صدد التفكير في ذلك. لا يجوز أن نترك الأنسة مورستان في هذا البيت المنكوب».

- «يجب أن ترافقها الى بيتها. إنها تقيم مع السيدة سيسيل

فورستر في كامبرويل السفلى، المكان ليس بعيداً إذاً. سوف أنتظرك هنا إذا رغبت في الرجوع. أم انك متعب؟».

ـ «على الاطلاق. لا اعتقد أنني سأرتاح قبل معرفة المزيد حول هذا الموضوع الشيق، لأنني وإن كنت قد عرفت بعض الخشونة في الحياة، لكنني أؤكد لك بأن هذا التتابع السريع للمفاجآت الغريبة هذه الليلة جعلني في حالة من الاضطراب الشديد. ومع ذلك فأنا أرغب في متابعة الأمر معك بعد أن قطعت هذه المرحلة».

قال لي: «وجودك سوف يكون خدمة كبيرة لي. سوف نعمل سوياً على حل القضية ونترك هذا الذي يدعى جونز يهتل لوهم ويحاول الوصول اليه. بعد أن توصل الآنسة مورستان، أريدك أن تقصد المنزل رقم ٣ في بنشن لاين وهو يقع على ضفة النهر في لامبيث. البيت الثالث الى الجهة اليمنى هو بيت محنط للحيوانات ويدعى شيرمان. ستري من النافذة ثعلباً برياً يمسك بأرنب صغير. اقرع الباب كي توقظ شيرمان العجوز وبلغه سلامي واطلب منه ان يسلمك «طوبي» في الحال. وعليك أن تأتي به الى هنا».

ـ «وطوبي هذا هو كلب على ما اعتقد».

ـ «أجل، إنه كلب مهجن غير مألوف يتمتع بحاسة شم مذهلة، أفضل أن يساعدني طوبي على أن تفعل ذلك كل قوة التحري في لندن».

قلت: «سوف أعود به إذاً. إنها الواحدة بعد منتصف الليل. سأكون هنا قبل الثالثة إذا تمكنت من الحصول على حصان نشيط».

قال هولز. «وأنا سأحاول استجواب السيدة برنستون والخادم الهندي، الذي قال لي تاديوس بأنه ينام في العلية الثانية. ثم أطلع على أساليب جونز العظيمة وأستمع الى سخريته التي تفتقر الى بعض الكياسة».

- ٧ -

حادثة البرميل

رافقت الأنسة مورستان في عربة الشرطة في طريق العودة الى منزلها. كانت تصرفاتها في غاية الرقة، وقد تحمّلت ما حدث بوجه هادئ لأنها شعرت بوجود من هو أضعف منها وبحاجة لمساعدتها، لقد رأيتها متألقة وشجاعة بجانب مدبرة المنزل. لكنها في العربة أصيبت بالاغماء ثم أخذت تبكي بحرارة؛ تلك المغامرة الليلية كانت شديدة القسوة عليها. قالت لي فيما بعد انها وجدتني بارداً وغير ودي أثناء وجودنا في العربة معاً. إنها لم تفهم الصراع الذي كان يعصف في أعماقي، أو الجهد الذي بذلته لكي أكبت مشاعري. العطف والحب كانا يجذبانني اليها مثلما فعلت يدي حين طلبت يدها في الحديقة. شعرت أن سنوات طويلة من العلاقات الاجتماعية تعجز عن حملي على الاحساس بطبيعتها العذبة والصادقة كما فعل هذا اليوم المليء بالأحداث الغريبة. لكن كانت هناك فكرتان جعلتا عبارات الودّ تصمت على شفّتي. إنها في حالة ضعف ويأس، مضطربة المشاعر والتفكير، وكان التصريح بالحب في هذه الظروف تطفلاً واستغلالاً لحالتها. والأسوأ من ذلك أنها «غنية». فلو ينجح هولز في أبحاثه، فإنها سوف تصبح وريثة غنية. فهل يجدر بطبيب جراح يتقاضى نصف راتب أن ينتهز فرصة

انفراده بها لبيثها مشاعره؟ الا يصبح في نظرها مجرد طالب ثروة
فقط؟ لم أجرو على تصوّر أن تخطر في بالها فكرة كهذه. فقد صار
كنز أغرا. حاجزاً منيعاً بيننا

كانت الساعة الثانية تقريباً حين وصلنا الى بيت السيدة
سيسيل فورستر.. كان الخدم غاطسون في النوم منذ ساعات، لكن
السيدة فورستر وبسبب اهتمامها البالغ بالرسالة الغريبة التي
وصلت الى الأنسة مورستان، كانت تسهر في انتظار عودتها. فتحت
لها الباب بنفسها، إنها سيّدة رشيقة في خريف العمر، ولقد شعرت
بالراحة حين رأيت ذراعها يلفّ خصر الأنسة مورستان بحنان وحين
سمعت صوتها وهي ترحّب بها بعطف.

لم تكن الأنسة مورستان بالتأكيد مجرد مربية تتقاضى أجراً بل
صديقة تعامل باحترام، تبادلت التحية مع السيدة فورستر التي
ألحّت في دعوتي للدخول لكي أقصّ عليها ما جرى. لكنني شرحت
لها أهمية المهمة الموكلة إليّ ووعدتها صادقاً بالزيارة وبأنني
سأعلمها بأي تطور يطرأ في القضية. وعندما انطلقت بي العربة
التفتّ خلسة ورايتهما واقفتين تتحدثان بمودة، كان الباب نصف
مغلق وضوء الصالة يشعّ من وراء الزجاج الملوّن، وشعرت بالراحة
لهذه الرؤية السريعة لبيت انكليزي هادئ وسط الخوض في تلك
القضية الغامضة التي شغلت الجميع.

كنت كلّما واصلت التفكير فيما حدث، تبدو لي الأمور أكثر
تعقيداً وغموضاً اخذت استرجع أحداث اليوم الغريبة فيما كانت
العربة تجتاز الشوارع الهادئة والمضاعة بمصابيح الغاز. المشكلة
الأساسية تبدو الآن واضحة: موت النقيب مورستان، اللأليء،

الاعلان، الرسالة - هذه الأمور كلها توضحت. إلا أنها أوصلتنا الى لغز أعمق وأكثر مأساوية. الكنز الهندي، والخارطة الغريبة التي وجدت بين أمتعة مورستان، والمشهد الغريب ليلة وفاة الرائد شولتو، وإعادة اكتشاف مكان الكنز التي تلتها مباشرة جريمة قتل الذي عثر عليه، والظروف الغريبة التي أحاطت بالجريمة، آثار الأقدام، الأسلحة الغريبة، الكلمات المدونة على الورقة التي تشبه ما كُتب على خارطة النقيب مورستان - إنها بالفعل متاهة لا يجرؤ سوى رفيقي في السكن بموهبته الفريدة على الخوض فيها من أجل المتوصل الى حلها.

يقع شارع بنشن لاين في القسم الأسفل من لامبث. وهويتألف من بيوت صغيرة مصدعة من طابقين. قرعت الباب عدة مرات في البيت رقم ٣، وأخيراً بدا ضوء شمعة خافت من وراء الستارة، ووجه يلقي نظرة من النافذة العليا.

قال لي الرجل: «اذهب بعيداً أيها المتشرد السكير. إذا تابعت الضجيج سوف افتح الباب وأترك ثلاثة وأربعين كلباً يهجمون عليك».

قلت له: «لو انك ثقلت واحداً منها فقط، فهذا ما جئت من أجله».

صرخ قائلاً: «هيا اذهب ادي آلة حادة في هذا الكيس وسوف ادعها تسقط على رأسك إذا لم تهرب».

قلت له بصوت عال: «لكنني أريد كلباً».

ردّ السيد شيرمان بحدّة: «لن أقبل المناقشة! ابتعد لأنني سأرميها قبل أن أكمل العدّ الى الثلاثة!».

لم أكد أقول: «السيد شرلوك هولمز» - حتى كان لكلماتي تأثير سحري عليه، أغلق النافذة، وبسرعة فتح الباب. كان السيد شيرمان رجلاً كهلاً، طويلاً وهزيلًا، كتفاه منحنيان ورقبته قاسية، ويضع نظارتين زرقاوين.

قال: «أرحّب دائماً بأي صديق لشرلوك هولمز. تفضّل يا سيدي. انتبه من الغرير إنه يعصّ. آه منك أيها الخبيث، تودّ أن تعصّ هذا السيد؟».

ومدّ الحيوان رأسه الكريه فبرزت عيناه الحمراءوان من بين القضبان. أضاف السيد شيرمان يقول: «لا تهتم به، إنه يشبه دودة بطيئة الحركة. ليست له مخالب فاتركه يَجُب البيت ليلتهم الخنافس. أرجو ألا تكون منزعجاً من تصرّفي معك في البداية، لأن الأولاد يضايقونني كثيراً، وهم يأتون فقط من أجل أن يقرعوا على الباب لإيقاظي. ما الذي يريده السيد شرلوك هولمز، يا سيدي؟».

— «إنه يريد كلباً من عندك».

— «آه! لا شك انه يريد طوبى».

— «إنه في الرقم ٧ إلى اليسار».

وأخذ يتنقل بهدوء والشمعة في يده بين أفراد تلك المجموعة الغريبة من الحيوانات التي اجتمعت من حوله. وفي ذلك الضوء الخافت شاهدت عيوناً كثيرة متألقة تحدّق فينا من كلّ قفص، حتى العوارض الخشبية فوقنا كانت مليئة بطيور أخذت تتحرك ببطء وهي ترفع ثقلها من رجل لأخرى لأن الصوت قطع عليها نومها.

كان طوبى حيواناً بشعاً، طويل الشعر ومسترخي الأذنين، وهو

هجين من الكلب السبنيلى(*)، لونه بني وأبيض، يتهاذى في مشيته التي تفتقد الى الرشاقة. تناول مني بعد تردد قطعة سكر أعطاني إياها العالم الطبيعي الكهل، وبعد أن تم التعارف لحق بي الى العربة ولم يبد أي نفور من مرافقتي. كانت الساعة تعلن الثالثة حين وصلت الى بونديتشري لودج. كان الملاك السابى ماكموردو محجوزاً بصفته شريكاً، وتم نقله هو والسيد شولتو الى المركز، وعند البوابة وقف شرطيان سمحا لي بالدخول مع الكلب بعد أن ذكرت لهما اسم المفتش جونز.

كان هولز يقف قرب الدرج يدخن غليونه ويضع يديه في جيبه. قال: «آه، لقد أحضرته معك. انه كلب جيد. اتلناي جونز ذهب بعد أن قام بعرض هائل بعد مغادرتك، لقد ألقى القبض ليس فقط على الصديق تاديوس بل وعلى حارس الباب ومديرة المنزل والخادم الهندي. البيت كله لنا لكن هناك شرطي في الطابق الأعلى. اترك الكلب هنا ولنصعد معاً».

ربطنا طوبي الى الطاولة وصعدنا السلم. كانت الغرفة كما تركناها، وقد تمت تغطية الجثة بشرشف أبيض. وفي الزاوية وقف الشرطي وقد بدت عليه امارات التعب.

قال رفيقي للشرطي: «أعزني فانوسك من فضلك. والآن ضع قصاصة الورق هذه حول رقبتى بحيث تتدلى على صدري. شكراً. سأخلع حذائي وجواربي. أرجو أن تحملها الى الطابق السفلي يا

(*) الكلب السبنيلى. كلب صغير قصير القوائم طويل الشعر متموجة، كبير الأذنين مسترخيهما

واتسون لأنني سأقوم بعملية تسلق. وأرجو أن تغمس منديلي في سائل الكرييوسوت، هذا يكفي. والآن اصعد معي قليلاً إلى العليّة».

دخلنا عبر الثغرة وسلط هولز الضوء ثانية على آثار الأقدام المرسومة على الغبار.

قال: «أودّ أن تنتبه بشكل خاص إلى هذه الآثار. هل تلاحظ فيها شيئاً مميزاً؟».

قلت: «إنها تعود لطفل أو لامرأة صغيرة الجسم».

– «وإلى جانب حجمها، هل هناك شيء آخر؟».

– «تبدو لي شبيهة بسائر الآثار».

– «على الإطلاق. انظر هنا! هذا أثر قدم اليمنى في الغبار. الآن سأترك بقدمي العارية علامة بجانبه، ما الفرق بينهما؟».

– «أصابع قدمك كلّها مجموعة، بينما يبدو كل إصبع على حدة في الأثر الآخر».

– «هذا صحيح. هذا ما أردت الوصول إليه، احفظ هذه النقطة جيداً، والآن تقدم قليلاً نحو هذا الباب وحاول أن تشمّ الإطار الخشبيّ، سوف أبقى في مكاني لأنني أحمل المنديل».

نفذت طلبه واستطعت في الحال أن أميّز رائحة قطران قوية.

– «هنا وضع قدمه وهو يحاول الخروج. إذا نجحت أنت في تتبع أثره لا أظن أن طوبي سيجد صعوبة في ذلك. انزل إلى الطابق السفلي وأطلق سراحه».

حين خرجت من المنزل كان شرلوك هولز على السطح، وكنت أراه يشبه سراج ليل هائل الحجم وهو يتقدم ببطء على الحافة ثم اختفى خلف مجموعة من المداخل، لكنه ظهر ثانية ليعود ويختفي في الجهة المقابلة، حين قصدت تلك الجهة رأيته يجلس عند زاوية الأفرين.

صرخ: «أهذا أنت يا واتسون؟».

- «أجل».

- «هذا هو المكان. ما هذا الشيء الأسود هناك؟».

- «إنه برميل ماء».

- «هل عليه غطاء؟».

- «أجل».

- هل هناك سَلَم في الجوار؟».

- «لا».

- «يا له من شخص لعين! هذا مكان خطر للغاية يجب أن أتمكن من النزول حيث نجح هو في الصعود. انبوب الماء يبدو متيناً. سأفعل ذلك على أي حال».

سمعت صوت جرّ قدميه ورأيت الفانوس وهو ينزل ببطء عند حافة الجدار. ثم تمكن شرلوك هولز بوثبة بسيطة أن يصل الى برميل الماء، ومنه الى الأرض.

قال وهو يضع الجورب والحذاء. «كان من السهل تتبع خطواته، لأن القرميد كان رخواً حيث مشى، وأوقع هذا وهو في عجلة من أمره ممّا يؤكد تشخيصي كما تقولون أنتم الأطباء».

كان يحمل في يده كيساً او جراباً صغيراً مصنوعاً من الياق
نباتية ملونة تزيينه بضع حبات خزن، يشبه علبة السجائر، من حيث
الحجم والشكل، وبداخله نصف دزينة من أشواك الخشب
الداكنة، حادة في طرف ومدورة في الطرف الأخرى، كالتى أصابت
برتلوميو شولتو.

قال هولز: «هذه أشواك جهنمية. انتبه كي لا تخزن نفسك. أنا
سعيد لأنني عثرت عليها، لأنه من المحتمل أن تكون الأشواك
الوحيدة التي بحوزته. وهكذا يتضاءل خطر أن نجد واحدة منها في
جلدك أو جلدي بعد فترة. أفضل الإصابة برصاصة على أن أصاب
بها. هل أنت مستعد للمشي مسافة ستة أميال يا واتسون؟».

- «بالتأكيد».

- «هل ستحتمل رجلك هذا؟».

- «آه، أجل».

- «هيا يا طوبي! شم هذه المحرمة يا طوبي الرائع! شمها». قال
هذا وهو يضع المحرمة التي غمست في سائل الكرييوسوت تحت
أنف الكلب، فيما كان هذا يقف منتصب الرأس بشكل مضحك
وكأنه خبير يشم رائحة نوع شهير من الخمر المعتق. ثم رمى هولز
بالمحرمة بعيداً، وربط في طوق الكلب حبلًا قوياً، وقاده الى برميل
الماء. انتفض الكلب في الحال وأخذ يعوي بارتجاف وحدة، وأنفه
على الأرض وذيله مرفوع، وانطلق بسرعة متتبعا الأثر فانشد الرسن
وأخذنا نجري معه بأقصى سرعتنا.

بدأت تباشير الفجر تطلّ وبدأ النور تدريجياً يكشف الطريق
أمامنا. البيت المربع الضخم بنوافذه السوداء العالية والفارغة

وجدرانه الباهتة كان ينتصب حزينا وبائساً من خلفنا. عبرنا الأرض المحيطة بالبيت، وخضنا في الخنادق والحفر التي كانت تملأها وتقطعها في كل مكان. الأرض وما عليها من أكوام الأوساخ والشجيرات البرية بدت وكأنها مصابة وتنذر بالشؤم ومنسجمة مع المأساة التي حلت بالمكان.

عند وصولنا الى السور تابع طوبي الركض بمحاذاته وهو يعوي باصرار، ثم توقف أخيراً في زاوية تغطيها شجرة مرّان صغيرة، حيث رُحِضت مجموعة من الحجارة والشقوق صارت بالية ومصقولة من الداخل وكأنها كانت في الغالب تستخدم كسلم. تسلق هولز تلك الدرجات وتناول مني الكلب ليضعه في الجهة المقابلة.

وعندما لحقت به أشار الى حجر وقال: «هذه علامة يد صاحب الرجل الخشبية، تستطيع رؤية أثر الدماء على الجص الأبيض. يا لحسن الحظ! ان المطر لم ينهمر بغزارة منذ البارحة! ستبقى الرائحة على الطريق بالرغم من كثافة السير عليها».

وأنا أعترف أيضاً بشكوكي بالنسبة الى العدد الذي لا يحصى من العربات التي عبرت طريق لندن منذ وقوع الجريمة حتى الآن. لكن مخاوفي ما لبثت أن هدأت. لم يتردد طوبي ولم ينحرف أو ينهار أثناء جريه المتواصل. لا شك أن رائحة الكرييوسوت النافذة كانت أقوى من كل الروائح الأخرى.

قال هولز: «لا تظن بأنني أعتمد على نجاحي في هذه القضية على مجرد الصدفة، ان أحد المذنبين داس على السائل الكيميائي. لدي الآن معلومات تخولني الكشف عنهما بوسائل عديدة. لكن هذه هي الوسيلة الأكثر تأثيراً، وبما ان الحظ وضعها بين أيدينا، لا يحق لي

ان اتجاهلها. إلا أنها منعت القضية من التحول إلى مشكلة تتطلب
براعة فكرية كما بدت في البداية. كانت ستقضي إلى نتيجة أفتخر
بالوصول إليها لولا هذا الدليل الواضح جداً».

قلت له: «هنالك مجال للفخر أكثر مما تتصور. أؤكد لك يا هولز
بأنني شديد الإعجاب بالوسائل التي تستخدمها للوصول إلى الحل
المناسب في هذه القضية أكثر من أسلوبك في جريمة القتل في
جيفرسون هوب. يبدو لي الأمر الآن أعمق وأكثر غموضاً. كيف
تستطيع مثلاً أن تضع بثقة أوصاف صاحب الرجل الخشبية؟».

«يا صديقي العزيز، تلك كانت البساطة بعينها. لن أكون
نظرياً، فكل شيء واضح وصريح. ضابطان مسؤولان في كتيبة
لحراسة السجن يكتشفان سرّاً يتعلّق بكنز مدفون. يرسم خارطة
الموقع لهما رجل إنكليزي يدعى جوناثان سمول. تذكرُ أننا قرأنا
اسمه على الخارطة التي كانت بحوزة النقيب مورستان. وهو وقعها
باسمه وباسم شركائه - عصاة الأربعة، كما سماها بأسلوب
درامي. وبواسطة هذه الخارطة تمكّن الضابطان - أو واحد
منهما - من العثور على الكنز الذي نُقل إلى إنكلترا دون أن يفهم (أو
يفهم) بشرط كان قد استلم الكنز بموجبه. والآن، لماذا لم يأخذ
جوناثان سمول الكنز بنفسه؟ الجواب واضح. على الخارطة تاريخ
يعود إلى الفترة التي كان فيها مورستان أكثر قرباً من الموقوفين، ولم
يأخذ جوناثان سمول الكنز لأنه كان موقوفاً مع شركائه ولا يتمكن
من ذلك بالطبع».

قلت: «لكن هذا مجرد تخمين».

«بل أكثر من ذلك. إنه الفرضية الوحيدة التي تشمل

الأحداث. فلنحاول رؤية توافقها مع التكملة. ظلّ الرائد شولتو مرتاحاً بضع سنوات، وهو سعيد بحياسة الكنز. ثم تصله رسالة من الهند تسبب له خوفاً كبيراً. ماذا حملت له؟».

– «إنها رسالة تقول أن الرجال الذين خدعهم أطلق سراحهم». أو أنهم هربوا، وهذا احتمال أكبر لأنه كان على علم بالمدة المحكوم عليهم بها، وما كان خروجهم ليفاجئهم. ماذا فعل إذا؟ قرّر حماية نفسه ضد صاحب رجل خشبية – وهو أبيض البشرة فأنت تذكر أنه شك في تاجر أبيض البشرة واعتقاداً منه أنه هو أطلق عليه النار من مسدسه. والآن هناك اسم رجل أبيض واحد على الخارطة. الثلاثة الآخرون من الهندوس أو المسلمين. لا يوجد رجل آخر، لذلك نستنتج بثقة أن صاحب الرجل الخشبية هو نفسه جوناثان سمول. هل يبدو لك هذا التحليل خاطئاً؟».

– «لا، إنه واضح ودقيق».

– «حسناً، الآن، دعنا نضع أنفسنا مكان جوناثان سمول، ولنحاول رؤية الموضوع من وجهة نظره: وصل إلى انكلترا وهو ينوي استعادة ما يعتبره حقاً له أولاً والانتقام من الرجل الذي أساء إليه ثانية. عرف مكان إقامة شولتو، ومن المحتمل أنه أجرى اتصالات مع شخص يعمل داخل البيت. هناك كبير الخدم، لال راو، الذي لم نقابله، والذي لا تطلق عليه السيدة برنستون الصفات الجيدة. لكن سمول لم يتمكن من اكتشاف مكان وجود الكنز، الذي لم يكن يعرفه سوى الرائد وخادم أمين مات. علم سمول أن الرائد كان على فراش الموت، وخوفاً من أن يضيع سرّ الكنز معه، استطاع تجاوز الحراس والوصول إلى نافذة غرفة

الرجل المحتضر، ولم يمنعه من الدخول سوى وجود الولدين في الداخل. لكنه في نوبة غضب شديد من الرجل عاد الى تلك الغرفة اثناء الليل وبحث في أوراقه الخاصة على أمل العثور على مذكر فيها معلومات حول الكنز، ثم يترك أخيراً تذكراً لزيارته أي البطاقة التي تحمل التوقيع. لا شك أنه كان ينوي في حال قتل الرائد أن يترك البطاقة على جسده للتأكيد على أن الجريمة لم تكن جريمة عادية، لكن الشركاء الأربعة يعتبرونها عملاً لتحقيق العدل. مثل هذه الأفكار الغريبة والشاذة تتكرر في سجلات الجرائم وهي الغالب تقدم دلائل هامة للوصول الى المجرم. هل تتابع ما أقوله؟».

ـ «بكل وضوح».

ـ «والآن ما الذي فعله جوناثان سمول؟ ليس أمامه سوى أن يراقب سرّاً محاولات العثور على الكنز. من المحتمل أن يكون قد غادر انكلترا، وأنه كان يرجع في فترات متباعدة. ثم عُثر على الكنز وتمّ اعلامه بالأمر في الحال. هنا أيضاً نشير الى وجود حليف داخل البيت. لن يتمكن جوناثان برجله الخشبية من الوصول الى الغرفة العليا التي اكتشفها برتلوميو شولتو، لذلك فهو يصطحب معه شريكاً غريباً الى حدّ ما، والشريك يتجاوز هذه المشكلة لكنه يغمس رجله في سائل الكرييوسوت، وهنا أتى دور طوبي، وها نحن نتابع معه الاثر، أنا وانت أيها الضابط الأعرج الذي يتقاضى نصف أجر».

ـ «لكن الذي ارتكب الجريمة هو الشريك وليس جوناثان سمول».

ـ «هذا صحيح، ويبدو أن ذلك سبب مضايقة لجوناثان، وهذا

يبدو من مشيته العنيفة التي ظهرت في الآثار التي تركها على أرض الغرفة، لم يكن حاقداً على برتلوميو شولتو وكان يفضل لو اقتصر الأمر على تقييده وكمّ فمه. إنه لا يريد وضع رأسه في حبل المشنقة، لكن لم يعد بالامكان تلافي الأمر: الغرائز الوحشية عند رفيقه كانت السبّاقة فاستخدم السم لتنفيذ جريمته. لقد ترك جوناثان سمول البطاقة وأنزل صندوق الكنز إلى الأرض ثم نزل بدوره، هذا هو مجرى الأحداث كما أتصورها. أما بالنسبة لشكل جوناثان سمول فإنه في خريف العمر وقد لوحّت الشمس بشرته لأنه أمضى فترة اعتقاله في جزر أندمانز التي تشبه الفرن. طوله نستطيع قياسه من المسافة بين خطواته، ونحن نعرف أنه كان ذا لحية. كان وجود الشعر في وجهه أول ما لفت نظر تاديوس شولتو حين رآه خلف النافذة، لا أعرف عنه معلومات أخرى».

— «والشريك؟».

— «آه، حسناً، ليس هناك غموض كبير في هذا الأمر. سوف تعلم كل التفاصيل بعد فترة. كم هو منعش هواء الصباح! انظر كيف تطفو تلك السحابة الصغيرة كأنها ريشة وردية من طائر ضخم من طيور البشروس. ودائرة الشمس الحمراء بدأت توسع أطارها فوق مدينة لندن المعتمدة. إنها ترسل أشعتها على أشخاص كثيرين لكنني أراهنك أن أحداً منهم ليس في صدد القيام بمهمة تفوق مهمتنا غرابة. كما نشعر بصغرنا ونحن نحمل هذه الطموحات الضيقة الأفق أمام قوى الطبيعة العظيمة! هل قطعت شوطاً في قراءة جان بول؟».

— «تقريباً. حاولت قراءته من خلال كارلايل».

«كان ذلك كمن يتتبع الجدول الى البحيرة الأصلية، إنه يقدم رأياً يتصف بالغرابة والعمق. أنّ البرهان الأساسي على عظمة الانسان الفعلية يكمن في ادراكه لصغره، انه ينمّ كما ترى عن قدرة على المقارنة وحسن الادراك وهذا بحدّ ذاته دليل على عمق المعرفة. هناك أيضاً غذاء جيد للفكر في ريشتر. هل تحمل مسدساً؟».

«معي عصاي».

«من المحتمل أن تحتاج لها حين نصل إليهما. سوف اترك جوناثان لك، أما الآخر فأنني سوف أطلق عليه النار إذا كان مؤذياً».

وأخرج مسدسه ليلقمه الرصاص، ثم أعاده الى جيب سترته الأيمن.

كنا في تلك الاثناء نتبع طوبى في طريق شُيدت عليها منازل شبه ريفية تقود الى العاصمة. ووصلنا الى شوارع كان فيها الشغيلة وعمال الأرصفة قد بدأوا نهار العمل بحيوية، وكانت المومسات يغلن نوافذ بيوتهن وينظفن مداخلها. في الساحة عند ناصية الشارع كان النشاط التجاري على وشك أن يبدأ، ومن داخل المحلات كان يخرج رجال أشداء يمسخون بأكماتهم لحاهم المبتلة من غسل وجوههم. والكلاب كانت تحدّق بنا باستغراب، لكن طوبى الذي لا مثيل له لم يلتفت يميناً او شمالاً بل تابع سيره وأنفه في الأرض، أخذاً بالعواء حين تشتد الرائحة.

قطعنا ستريتهام وبريكستون وكامبرويل ووجدنا أنفسنا أخيراً في كنيغتون لاين وكنا انصرفنا عن الطريق الرئيسية لنجتاز الشوارع الفرعية الى الشرق من أوفال. يبدو أن الرجلين اللذين كنا

نلاحقهما سلكاً طريقاً متعرجة هرباً، على الأرجح، من الأماكن المكتظة، وهما لم يقطعا شارعاً رئيسياً واحداً، إذا كان هناك شارع فرعي موازياً له يستطيعان المرور فيه عند آخر كنيختون لاين انحرفا يساراً عبر بوند ستريت ومايلز ستريت. وحيث يصل الشارع الأخير الى نايتز بلايس توقف طوبى عن الجري وأخذ يرجع الى الوراء ثم يتقدم وقد انتصبت احدى أذنيه وتدلت الثانية وهو في حيرة تامة. ثم أخذ يدور وهو ينظر إلينا من حين الى آخر، كأنه يطلب تعاطفنا معه في وضعه المخرج.

قال هولز متذمراً: «ما أمر هذا الكلب اللعين؟ هما بالتأكيد لم يركبا في عربة ولا في منطاد».

قلت محاولاً ايجاد تفسير: «ربما توقفنا هنا لبعض الوقت».

— «آه! حسناً، إنه ينطلق من جديد»، قال هولز ذلك بارتياح. لقد تفقد الكلب الرائحة من حوله ثم قرّر الاتجاه أخيراً وأخذ يعدو بحيوية وإصرار لم يظهرهما من قبل. كانت الرائحة أقوى من قبل لأنه لم يلجأ لتقريب أنفه من الأرض بل أخذ يشدّ الحبل لكي يزيد من سرعته. ورأيت في بريق عينيّ هولز انه كان مقتنعاً بأن رحلتنا شارفت على نهايتها.

ركضنا عبر شارع «ناين إلز» حتى وصلنا الى «برودريك» ومستودع نلسون الضخم للأخشاب قرب فندق «هوايت إيغل». صار الكلب شديد الاهتمام ودخل من البوابة الجانبية الى داخل الباحة حيث كان النشارون قد بدأوا عملهم، وواصل الكلب جريه عبر النشارة ورقاقات الخشب، يمر في مجاز ضيق ثم في ممر ويدفع بنا بين أكوام الأخشاب، وأخيراً ويعواء المنتصر اندفع نحو برمبل

كبير لا يزال على عربة القرولي التي حملته الى المستودع. انتصب
طوبي فوق البرميل الخشبي وقد تدلى لسانه وأخذ ينظر من واحد
الى آخر بانتظار علامة تقدير. كانت أضلاع البرميل وكذلك دواليب
عربة القرولي ملطخة بسائل أسود، وكان الهواء كله مشبعاً برائحة
سائل الكرييوسوت.

تبادلت وشرلوك هولمز نظرة مشدوهة ثم استغرقنا في نوبة من
الضحك العفوي.

- ٨ -

فرقة

بايكر ستريت

غير النظامية

سألته: «ماذا سنفعل الآن ونجاح طوبى لم يعد أمراً مؤكداً؟».

قال هولز وهو ينزله عن البرميل للخروج من مستودع الأخشاب: «لقد أخطأ بسبب حاسة الشم. إذا أخذنا بعين الاعتبار كمية سائل الكرييوسوت التي تنقل يومياً الى لندن، لن يدهشنا كثيراً أن الأثر الذي تتبعناه اختلط بأثر آخر. وسائل الكرييوسوت كثير الاستعمال اليوم خاصة من أجل تجفيف الأخشاب، واللوم لا يقع على طوبى».

— «إذاً علينا الرجوع الى مكان الرائحة الأصلية».

— «أجل، ولحسن الحظ هو ليس بعيداً، من الواضح أن الذي أربك الكلب عند ناصية «نايتز بلايس» كان وجود أثرين في اتجاهين متعاكسين. ونحن تتبعنا الأثر الذي لا يفيدنا، فلم يبق أمامنا سوى العودة وتتبع الآخر».

لم نجد صعوبة في ذلك، فقد عدنا بطوبى الى المكان الذي اختلطت فيه الروائح، حيث أخذ يتأكد من وجود الرائحة الأصلية ثم انطلق بنا في اتجاه جديد.

قلت: «يجب أن ننتبه كي لا يقودنا الى المكان الذي اتى منه برميل الكرييوسوت».

ـ «لقد فكرت في ذلك، ولكن بامكانك أن تلاحظ أنه لم يترك الرصيف، بينما تم نقل البرميل على الطريق، الآن نحن نتتبع الرائحة الفعلية».

كان طوبي يركض باتجاه النهر مجتازاً شارع بلumont بلايس وبونسز ستريت. وعند نهاية شارع برود ستريت قادنا الى الضفة حيث يوجد رصيف خشبي صغير، وصل طوبي الى آخر الرصيف وتوقف وهو يعوي وينظر الى المياه الداكنة.

قال هولز «لم يسعفنا الحظ، لقد استقللاً مركباً».

عدة زوارق شراعية صغيرة وقوارب كانت ترسو الى جانب الرصيف، أخذنا طوبي الى كلٍ منها على حدة، وكان يشتم بإصرار، لكن دون أن يعطي أية إشارة.

بالقرب من الرصيف شاهدنا بيتاً صغيراً من الآجر، علقت يافطة خشبية على احدى نوافذه، ودون عليها بخط عريض: «موردكاي سميث»، وتحتها: «قوارب للإيجار بالساعة او اليوم».. وفوق الباب وضعت يافطة ثانية للإعلان عن وجود زورق بخاري ـ وتأكيداً على ذلك وضعت كمية كبيرة من فحم الكوك قرب الحاجز المائي. نظر شلوك هولز حوله وبدأت عليه إمارات التشاؤم، قال: «الوضع سيء»، والرجلان أذكى مما كنت أتوقع. يبدو أنهما تمكنا من اخفاء أثرهما، يظهر أنهما اتفقا على خطة مسبقة».

كان يتقدم نحو البيت عندما فتح الباب وخرج منه مسرعاً صبي

مجعد الشعر، في السادسة من عمره، ولحقت به امرأة قوية البنية محتقنة الوجه وترفع ملعقة كبيرة في يدها.

صرخت قائلة: «ارجع يا جاك لتغتسل. ارجع أيها العفريت الصغير. إذا رجع أبوك وراك هكذا سيغضب كثيراً»

قال هولز متدخلًا ببراعة. «أيها العزيز الصغير! يا لك من شيطان مورّد الخدين! ماذا تطلب يا جاك؟».

فكر الصبي قليلاً ثم قال: «أطلب شلناً».

— «ألا تفضل شيئاً آخر؟».

أجاب الصبي الذكي بعد تفكير: «أفضل الحصول على شلنين».

— «هذا ما تريد، هيا، خذ! يا له من صبي رائع يا سيدة سميث».

— «الله يبارك فيك يا سيدي، انه بالفعل كذلك، وصار من الصعب علي الاعتناء به. خاصة بسبب غياب زوجي عن البيت لعدة أيام متواصلة».

قال هولز بخيبة: «هو غائب إذأ؟ هذا مؤسف لأنني كنت أود التحدث اليه».

— «رحل منذ صباح البارحة، والحقيقة يا سيدي انني بدأت اشعر بالخوف عليه، إذا كان الأمر يتعلق بمركب قد أتمكن من خدمتك».

— «كنت أريد استئجار الزورق البخاري».

— «لكنه يا سيدي رحل في هذا الزورق. وهذا ما يثير حيرتي. لأنني أعرف أنه ليس فيه كمية فحم توصله الى مكان أبعد من

ولويتش ثم تعود به الى هنا. لو انه استخدم مركب نقل البضائع ما كنت أتضايق؛ لأنه كان يقوده أحياناً حتى غرقسند لتوصيل بضاعة معينة وقد يمضي هناك عدة أيام إذا وجد عملاً إضافياً. لكن ما الفائدة من زورق بخاري لا فحم فيه؟».

ـ «قد يكون اشترى فحماً من رصيف آخر».

ـ «ربما يكون فعل ذلك، لكنه لا يرضى بذلك عادة يا سيدي، سمعته عدة مرات يتذمّر من السعر الذي يوضع لبضعة أكياس من الفحم، وبالإضافة الى ذلك، أنا لا أحبّ ذلك الرجل ذو الرجل الخشبية، والوجه البشع واللهجة الغريبة، ماذا كان يريد من زيارته المتكرّرة؟».

قال هولز وقد فوجيء بالأمر: «رجل برجل خشبية؟».

ـ «أجل يا سيدي، رجل أسمر البشرة ملامحه مريبة وقد جاء لمقابلة زوجي عدة مرات، وهو الذي أيقظه ليلة البارحة، والأدهى من ذلك أن زوجي كان يتوقّع قدومه لأنه كان قد أعدّ الزورق للسفر. أقول لك بصراحة يا سيدي، أنا لست مرتاحة للأمر».

قال هولز وهو يهز كتفيه: «لكن يا سيدة سميث، أنت تخيفين نفسك بلا سبب، كيف تستطيعين التأكد من أن صاحب الرجل الخشبية هو الذي أتى في الليل؟ لا أفهم كيف تأكدت من ذلك».

ـ «من صوته يا سيدي. إنني أعرف جيداً صوته الخشن والمبحوح، كانت الساعة حوالي الثالثة صباحاً عندما قرع على النافذة وقال: هيا أيها الرّيّان، حان وقت الإقلاع، فأيقظ زوجي جيم ابننا البكر، وغادرا البيت دون أن يقولوا شيئاً لي. ووقفت أسمع

صوت الرجل الخشبية وهي تططق على الحجارة».

– «وهل كان هذا الرجل وحيداً؟».

– «لا أستطيع أن أؤكد لك ذلك، يا سيدي. لكنني لم أسمع أحداً يتكلم سواه».

– «المعذرة يا سيدة سميث لأنني جنث أطلب الزورق البخاري فقد نصحوني به – يبدو أنني نسيت اسمه».

– «أورورا يا سيدي».

– «آه، يبدو لي انه ذلك الزورق الأخضر بخط أصفر وعريض في الوسط؟».

– «لا، أبدأ انه زورق صغير الحجم ومتناسق العرض كسائر الزوارق التي تعبر النهر. وعليه طلاء أسود جديد يزينه خطان باللون الأحمر».

– «شكراً لك، أتمنى أن يعود السيد سميث بسرعة. سوف أقصد أرصفة أخرى على النهر وإذا رأيت الأورورا سأخبر زوجك بأنك قلقة عليه. هل قلت أن له مدخنة سوداء؟».

– «لا يا سيدي. سوداء ولها اطار أبيض».

– «آه، حسناً، الجانبان سوداوان. صباح سعيد يا سيدة سميث. انظريا واتسون هذا شخص في زورق صغير، سنطلب منه أن يحملنا الى الضفة الأخرى».

وقال هولز وهو يأخذ مكانه في الزورق: «أثناء التحدث الى أشخاص مماثلين يجب مراعاة أمر أساسي: أن لا تدعهم أبدأ

يشكون أن ما يدلون به من معلومات له أدنى فائدة بالنسبة اليك. وإلا فإنهم سيكتمون ما عندهم كالمحار، لكن إذا استطعت ابتكار حجة معينة كما فعلت منذ قليل، فأنك هكذا تتمكن من الحصول على ما تريد».

قلت له. «يبدو أن خط سيرنا صار واضحاً».

- «ما الذي تفعله إذا؟»

- «أستأجر زورقاً بخارياً وأتتبع الأورورا».

- «لكن هذه يا صديقي مهمة صعبة. قد يكون الزورق راسياً في أحد الأرصفة العديدة المنتشرة على جانبي النهر حتى غرين ويتش. وتحت الجسر عدد من أماكن الهبوط التي تشبه المتاهة. وقد يتطلب منا البحث فيها أياماً عديدة».

- «إذا نستعين بالشرطة».

- «لا، أفضل الاتصال بأتلناي جونز في آخر لحظة. إنه ليس شخصاً سيئاً، وأنا لا أريد القيام بأي عمل يجرح كبرياءه المهني، لكنني أرغب في التوصل الى الحل بمفردي بعد الشوط الطويل الذي قطعناه في الطريق اليه».

- «هل نعلن عن طلبنا ونسأل مسؤولي الأرصفة؟».

- «هذا أسوأ بكثير! سيعرف الرجلان أن مطاردتهما بدأت، وسوف يغادران البلاد. وهما على أية حال قد يلجأ الى ذلك، لكنهما لن يستعجلا في السفر طالما أنهما يشعران بالاطمئنان. في هذه الناحية قد يكون نشاط جونز مفيداً، لأنه بالتأكيد سيديلي بوجهة

نظره حوّل القضية الى الصحف اليومية، وسيعتقد الهاربان أن الجميع يبحثون عن رائحة مضلّلة».

سألته حين توقف بنا المركب قرب إصلاحية ميلبانك: «ماذا ستفعل إذا؟»

- «نستقل هذه العربة ذات العجلتين الى البيت، نتناول الفطور ثم ننام حوالي ساعة. لأنه من المحتمل أن نسر هذه الليلة أيضاً. توقف عند مركز البريد أيها الحوذي! سوف نحتفظ بطوبي لأننا قد نحتاج اليه ثانية».

توقفت بنا العربة أمام مركز البريد في شارع غراين بيتز، وقام هولز بارسال برقية.

سألني ونحن في طريقنا الى البيت: «لمن تعتقد أنني أرسلت البرقية؟».

- «أنا متأكد من أنني لا أعرف».

- «أتذكر فرقة المفتشين في شرطة بايكر ستريت، الذين استخدمتهم في قضية جيفرسون هوب؟».

قلت ضاحكاً: «حسناً».

- «في هذه القضية سيكون لهم دور لا يقدر بثمن. وإذا فشلوا لديّ وسائل أخرى، لكنني سأجربهم أولاً. تلك البرقية كانت مرسلة الى الملازم المضجر ويغنز، وأعتقد أنه سيكون عندنا مع عصابته قبل أن ننتهي من تناول الفطور».

كانت الساعة ما بين الثامنة والتاسعة، وكنت أعاني من وطأة

الأحداث المتلاحقة في الليلة الماضية. كنت متعباً ورجلي تؤلمني، فكري مشوش وجسدي مرهق. لم أكن أتمتع بالحماس المهني الذي كان يحث رفيقي على الاستمرار، ولم أعتبر الأمر مشكلة ذهنية مجردة. وبالنسبة لموت برتلوميو شولتو فأنني لم أسمع عن هذا الرجل ما يسر ولم أحمل بالتالي كراهية عميقة لقاتليه. لكن موضوع الكنز مختلف، لأن الكنز، أو جزءاً منه هو من حق الأنسة مورستان، وطالما هناك أمل في استرجاعه كنت مستعداً لتكريس نفسي من أجل ذلك. مع أن نجاحي في ذلك سيبعدها عني نهائياً على الأرجح. لكنني لا أقبل الحبّ الأناني والتافه الذي يوحى بفكرة مماثلة. إذا كان هولز يعمل جاهداً للوصول الى المجرمين، فأنا لذي سبب أقوى يدفعني للعثور على الكنز.

اغتسلت وبدلت ملابسي فشعرت مباشرة بأنني أسترجع حيويتي ونشاطي. نزلت الى الصالة فوجدت أن هولز أعدّ الفطور والقهوة.

قال ضاحكاً وهو يشير الى صحيفة أمامه: «يبدو أن جونز العنيف وهذا المحرّر الذي يفهم في كلّ شيء وضعاً تصوراً مشتركاً للمشكلة. لكنك سئمت من القضية ومن الأفضل أن تتناول البيض واللحم أولاً».

أخذت منه الصحيفة وقرأت المقالة التي كانت بعنوان «مسألة غامضة في نورود العليا».

- «حوالي الساعة الثانية عشرة ليلاً [كما قال المسؤول] عثر على السيد برتلوميو شولتو، في بونتيشري لودج، في منطقة نورود العليا، قتيلاً في غرفته في ظروف معقدة. وحسب ما وصلنا من

معلومات فان جثة السيد شولتو لم تكن تحمل آثار عنف، لكن مجموعة ثمينة من المجوهرات الهندية التي ورثها القتل عن والده سرقت. أول من اكتشف الحادثة كان السيد شرلوك هولمز والدكتور واتسون اللذان كانا يزوران البيت برفقة السيد تاديوس شولتو شقيق القتل. وللصدفة السعيدة كان السيد أتلناي جونز الشخصية الشهيرة في فرقة المباحث، موجوداً في مركز الشرطة في نورود ووصل الى مكان الجريمة في غضون نصف ساعة من وصول الخبر، وبموهبة وخبرته المتمرسية بدأ مباشرة بحثه عن المجرمين، وأمر بالقاء القبض على تاديوس شولتو، الى جانب مدبرة المنزل السيدة برنستون وكبير الخدم الهندي الذي يدعى لال راو وبسواب أو حارس يدعى ماكوردو. من المؤكد ان اللص، أو اللصوص، كانوا يعرفون البيت، والسيد جونز استطاع بمعرفته وموهبته في الملاحظة الدقيقة أن يبرهن بشكل حاسم أن المجرمين لم يدخلوا من الباب أو النافذة بل صعدوا الى سطح البيت ودخلوا من باب صغير الى عليّة ومنها الى الغرفة التي وجدت فيها الجثة. وهذا الواقع، الذي نقل الينا بوضوح، هو اثبات قاطع بأن ما حدث لم يكن عملية سرقة تمت بالصدفة. إن الفائدة المرجوة من الحضور اليقظ والنشيط لرجال القانون في مناسبات كهذه، تجلّت في وجود ذلك العقل القوي والبارع. ونشير هنا الى أن ذلك الحضور المبدع للسيد جونز هو بمثابة حجة إضافية لمن يطالبون بلا مركزية مفتشي الشرطة بحيث يصبحون على اتصال أوثق وأكثر فعالية بالقضايا التي من واجبهم التحقيق فيها.

قال هولمز وهو يبتسم ابتسامة عريضة ويتناول قهوته: «اليس هذا رائعاً ما رأيك؟».

– «أعتقد أننا نجونا بأعجوبة ولم يلق القبض علينا في هذه القضية».

– «وأنا أيضاً ولكنني لا أضمن سلامتنا الآن إذا انتابته نوبة أخرى من المهارة».

في تلك اللحظة ارتفع صوت جرس الباب في رنين متواصل، وسمعت صوت صاحبة البيت السيدة هدسون تحتج بعنف واضطراب.

قلت وأنا أقف: «بحق السماء يا هولز، يبدو أنهم يطاردوننا بالفعل».

– «لا، الأمر ليس سيئاً إلى هذا الحد. إنها فرقة غير رسمية، فرقة الشرطة غير النظامية في بايكر ستريت».

وفيما هو يتكلم تعالى وقع سريع لأقدام عارية على السلم، ولغط أصوات مرتفعة، ثم اندفع الى داخل الصالة اثنا عشر رجلاً يرتدون ثياباً رثة ومتسخة. وبالرغم من دخولهم الصاخب فإنهم يعرفون النظام لأنهم وقفوا مباشرة في صف واحد وأخذوا ينظرون إلينا بترقب. واحد من بينهم، وكان أطول من الآخرين وأكبر سناً، تقدم نحونا بتعالٍ بدا مثيراً للضحك في تلك المجموعة الهزيلة المعروفة بسوء السمعة. وقال:

«وصلتنا رسالتك يا سيدي، فأحضرت الرجال في الحال. ثلاثة شلنات وستة بنسات من أجل التذاكر».

فمد هولز يده ببضع نقود فضية وقال: «تفضل. في المستقبل يا ويغنز يقدم الرجال تقريرهم لك، وأنت تنقله لي، فلا داعي لاقتحام

البيت على هذا النحو مرة ثانية، لكن لا بأس الآن لأن الجميع يجب أن يسمعوا التعليمات إنني أودّ تحديد مكان وجود زورق بخاري اسمه أورورا، يملكه موردكاي سميث، وهو زورق أسود عليه خيطان باللون الأحمر، والمدخنة سوداء ولها اطار أبيض. إنه في مكان ما في النهر، وأريد أن يذهب واحد منكم إلى المكان الذي يرسو فيه قارب موردكاي سميث في مواجهة ميلبانك ليخبرنا إذا عاد المركب أم لا. يجب أن توزّعوا العمل بينكم وتبحثوا بدقة على الضفتين. وأخبروني بكلّ جديد. هل هذا واضح؟».

قال ويغنز: «أجل أيها الحاكم».

– «الدفع يتمّ كالمعتاد، جنيه إضافي لمن يعثر على الزورق، وهذا اجر يوم مقدّماً. والآن اذهبوا!».

أعطى كل واحد منهم شلناً فنزلوا بضجيج واهتياج، ورأيتهم بعد قليل وهم يتدفقون الى الشارع.

قال هولمز وهو ينهض ليشعل غليونه: «إذا كان الزورق على سطح الماء فانهم سيجدونه. انهم يصلون الى كل الأمكنة، ويرون كل شيء، ويسمعون كلّ ما يدور بين الناس. أتوقع أن يصلني منهم خبر موقع الزورق قبل المساء. وفي هذه الأثناء لا نستطيع شيئاً سوى انتظار النتيجة، لا نستطيع مواصلة البحث إلّا إذا عثرنا على الأورورا أو على السيد موردكاي سميث».

– «سأعطي طوبى فضلات الطعام. هل ستنام يا هولمز؟».

– «لا، لست متعباً، جسمي غريب فأنا لا أذكر انني شعرت بالتعب أثناء العمل، لكن الكسل يرهقني تماماً. سأدخن وأفكر في

هذه القضية غير المألوفة التي عرفناها بفضل تلك الزبونة اللطيفة. تبدو المهمة سهلة لأن ذوي الأرجل الخشبية ليسوا كثيرين، لكن من المؤكد أن الرجل الآخر استثنائي.

— «الرجل الآخر ثانية!».

— «أنا لا أقصد أن يبقى لغزاً بالنسبة لك، ولكن أنت لا شك كوّنت رأياً خاصاً عنه، والآن نذكر المعطيات. آثار قدمين عاريتين صغيرتين، أصابعهما لم يقيدها حذاء من قبل، وعصا لها رأس حجرية، ورشاقة ملفتة، وأسهم مسمومة صغيرة، ماذا تستنتج من كل هذه المعلومات؟».

قلت معلناً رأيي. «إنه رجل بدائي! قد يكون أحد الشركاء الهنود الذين كانوا مع جوناثان سمول».

قال: «احتمال ضئيل. حين رأيت الأسلحة الغريبة كنت ميّالاً الى التفكير متلك، لكن الشكل المميّز لعلامات القدمين جعلني أعيد التفكير في الأمر. بعض سكان شبه الجزيرة الهندية لهم أحجام صغيرة، لكن أحداً منهم لم يترك أثراً كهذه، الهندوسي له قدم طويلة ونحيلة، والهندي الذي ينتعل الصندل أصبعه الأكبر بعيد عن سائر الأصابع لأن الشريط الجلدي في الصندل يفصل بينها. والأسهم الصغيرة لا يمكن إطلاقها إلا بطريقة واحدة، بواسطة قسبة للنفخ. إذاً أين نجد رجلنا البدائي هذا؟».

جازفت وقلت: «في أميركا الجنوبية».

مدّ يده وتناول كتاباً ضخماً عن الرفّ

— «هذا معجم جغرافي صور حديثاً. ويمكن الرجوع اليه بصفته

المستند الأحدث. ماذا لدينا هنا؟».

«تقع جزر آندمان على بعد ٣٤٠ ميلاً الى الشمال من سومترا، في خليج البنغال».

... هم! هم! ما هذا كله؟ مناخ رطب، صيد بحري مرجاني، أسماك القرش، ميناء كبير، ثكنات للموقوفين، جزيرة رتلاند، أحراج من شجر الحور القطني - آه، ها قد وصلنا!

«قد تكون ميزة السكان الأصليين في جزر آندمان انهم أصغر جنس بشري على الأرض، إلا أن بعض الأنثروبولوجيين يطلقون هذه الصفة على قبائل البوشمن الأفريقية، وهنود ديغر في أميركا، وشعب تيرا ديل فوجيانز. متوسط طول الفرد من سكان تلك الجزر لا يصل الى أربع أقدام وعدد كبير من البالغين أصغر من ذلك بكثير. وهم شعب شرس، وسريع الغضب ومنيع الجانب، مع أنهم مخلصون في صداقاتهم عندما ينجح المرء في اكتساب ثقتهم».

- «تذكر هذا يا واتسون. والآن، اسمع:

شكلهم بشع فرووسهم ضخمة ومشوّهة وعيونهم صغيرة وشرسة وقسمات وجوههم منقّرة. لهم أقدام وأيدي ملفّقة بصغرهما. مناعتهم وشراستهم أفشلتنا تماماً كلّ المحاولات التي بذلها المسؤولون البريطانيون لاستئصالهم. كانوا دائماً مصدر رعب لبحارة السفن التي تتحطم بالقرب من شواطئهم، كانوا يحطمون رؤوس الناجين بواسطة العصي ذات الرؤوس الحجرية أو يطلقون عليهم أسهمهم المسمومة. وهذه المجازر كانت تنتهي دائماً في احتفال تؤكل فيه اللحوم البشرية».

– «شعب لطيف وودّي! اسمع يا واتسون، لو أنّ هذا الشخص ترك على هواه لكانت الأمور اتخذت مجرى أكثر فظاعة في هذه القضية. أنا متأكد، انه حتى في الوضع الحالي، جوناثان سمول نادم لاستخدامه»

– «لكن كيف تسنّى له أن يتخذ رفيقاً كهذا؟».

– «لا أستطيع الاجابة على هذا السؤال. لكن بما أن سمول جاء من جزر أندمان لذلك فان وجود هذا الشخص معه لا يثير دهشتنا. لا شك سنعرف تفاصيل أكثر في الوقت المناسب. اسمعني يا واتسون، أنت تبدو مرهقاً تماماً. تمّدّد هنا على الأريكة وسأحاول أن أساعدك على النوم».

تناول الكمان من الزاوية وفيما كنت أتمدّد بدأ يعزف لحناً هادئاً وحالماً وشجياً – إنه لحن من تأليفه، على الأرجح، إذ انه يتمتع بموهبة فذة للارتجال. وكنت أنظر بوضوح إلى يديه النحيلتين وعلامات الجدّ على وجهه وقوس الكمان وهو يعلو ويهبط في يده. ثم بدا لي أنني أطفو بعيداً على صفحة بحر هادئ من الأنغام حتى وجدت نفسي في دنيا الأحلام ووجه ماري مورستان العذب ينظر إليّ.

- ٩ -

الحلقة المفقودة

لم أستيقظ إلا في وقت متأخر من بعد الظهر وشعرت بأنني استجمعت قواي ونشاطي. شرلوك هولمز ما زال يجلس تماماً كما رأيته قبل استغراقي في النوم، إلا أنه كان قد وضع الكمان جانباً وانهمك في قراءة كتاب. نظر إليّ عندما تحركت، فرأيت وجهاً عابساً ومضطرباً.

قال لي: «نمت نوماً عميقاً، كنت خائفاً أن يوقظك الحديث الذي جرى هنا».

- «لم أسمع شيئاً. لقد وصلتكم أخبار جديدة إذأ؟».

- «لسوء الحظ، لا. وأعترف بأنني مندهش ومصاب بالخيبة. كنت أتوقع الحصول على معلومات أكيدة في مثل هذه الساعة. جاء ويغنز منذ قليل ليقول لي بأنه لا يوجد أي أثر للزورق البخاري. هذا البحث مثير للأعصاب لأن كل ساعة تمر لها أهميتها».

- «هل أستطيع أن أفعل شيئاً؟ أشعر بأنني نشيط الآن ومستعد للقيام بمهمة ليلية أخرى».

- «لا، لا نستطيع أن نفعل شيئاً الآن. سنكتفي بالانتظار. قد

تصل الرسالة في غيابنا لو خرجنا وهذا يؤدي الى مزيد من التأخير.
تستطيع أن تفعل ما تشاء وأنا سأظل هنا».

- «سأذهب إذاً إلى كامبرويل لزيارة السيدة سيسيل فورستر،
لقد طلبت مني ذلك البارحة»

سأل هولز وفي عينيه التماعة مرحة: «لزيارة السيدة سيسيل
فورستر؟».

- «حسناً ولزيارة الأنسة مورستان أيضاً. كانتا في غاية
الشوق لمعرفة ما يحدث».

قال هولز: «لا تسترسل في سرد التفاصيل أمامهما، فالنساء
لسن موضع ثقة - ولا حتى الأفضل من بينهن».

لم أرغب في مناقشته في رأيه الفظيع بل اكتفيت بالقول: «سأعود
بعد ساعة أو ساعتين».

- «حسناً أتمنى لك حظاً جيداً لكن بما أنك ستقطع النهر أرجو
أن تعود بطوبي الى صاحبه، لأنني لا أعتقد بأننا سوف نحتاج اليه
في وقت قريب»

أخذت طوبي وسلمته إلى عالم الطبيعة العجوز بعد أن أعطيته
نصف جنيه ذهبي. في كامبرويل وجدت الأنسة مورستان متعبة من
مغامرة الليلة الماضية وفي انتظار سماع ما استجد. وكذلك السيدة
فورستر كانت ترغب في معرفة تفاصيل القضية، أخبرتهما كل ما
فعلناه متجنباً الإشارة الى الأجزاء المفزعة من تلك المساة. ومع
أنني تحدثت عن وفاة السيد شولتو، لكنني لم أذكر أمامهما
الأسلوب الذي تمت به الجريمة ولا أداة التنفيذ، وبالرغم من كل

المعلومات التي حذفها كان ما تبقى كافياً لاثارة دهشتها
وذهولهما.

قالت السيدة فورستر بحماس: «هذه رواية السيدة مظلومة،
وكنز يساوي نصف مليون من الجنيهات، ورجل أسود وحشي،
ومجرم برجل خشبية. انهما يحلان محلّ التنين التقليديّ أو الباشا
الشرير».

وأضافت الأنسة مورستان وهي ترمقني بذكاء: «وفارسان
هائمان يتوليان عمليات الانقاذ».

— «لكن ثراءك يا ماري، متوقف على نتيجة هذا البحث. لا أعتقد
أنك متحمسة كما يجب. تخيلي نفسك غنية الى هذا الحد والعالم
كله عند قدميك».

اهتز قلبي فرحاً عندما لاحظت أنها لم تبد اعجاباً بهذا الحدث
المتوقع، بل على العكس من ذلك هزّت رأسها بكبرياء كما لو أن الأمر
لم يكن يثير اهتمامها.

قالت: «ما يثير قلقي هو مصير السيد تاديوس شولتو، ولا أهمية
لشيء آخر. أعتقد أن سلوكه كان رقيقاً ومشرقاً ومن واجبنا أن نبرئه
من هذه التهمة الفظيعة التي لا أساس لها من الصحة».

كنت لا أزال في كامبرويل مع حلول المساء، ولم أصل الى البيت
إلا مع بداية الظلام. رأيت كتاب رفيقي وغليونه بجانب الكرسي،
لكنني لم أجده هو. أخذت أبحث عن ملاحظة تركها لي، لكنني لم
أجد شيئاً.

سألت السيدة هدرسون حين صعدت لتتنزل الستائر: «يبدو أن السيد شرلوك هولمز خرج؟».

– «لا ياسيدي. إنه في غرفته هل تعرف يا سيدي» وأخفضت صوتها لتتابع هامسة: «أنا قلقة على صحته».

– «ولماذا يا سيدة هدرسون؟».

– «إنه غريب الأطوار يا سيدي، بعد خروجك أخذ يمشي ويمشي، جيئةً وذهاباً، إلى أن تعبت من صوت وقع قدميه. ثم سمعته يتحدث إلى نفسه ويتمتم، وكلما سمع رنين الجرس كان يسرع إلى أعلى السلم ويسألني: «من هناك يا سيدة هدرسون؟». وهو الآن في غرفته لكنني لا أزال أسمع صوت خطواته. أرجو ألا تكون بداية مرض يا سيدي. تجرأت وحدثته عن علاج منعش، لكنه التفت نحوي بنظرة أربكتني ولم أعرف كيف خرجت من الغرفة».

– «لا أظن أن هناك ما يوجب القلق يا سيدة هدرسون، سبق وشاهدته على هذه الحال من قبل، انه يفكر في مسألة معينة وهذا ما يجعله متوتراً».

حاولت أن أتحدث بلامبالاة مع صاحبة البيت الفاضلة، لكنني كنت قلقاً بدوري، وازداد قلقي وأنا أسمع صوت خطواته من حين إلى آخر أثناء الليل، وأنا أعلم مدى معاناته بسبب شدة حماسه وخضوعه لهذا الخمول الإلزامي.

كان متعباً ومرهقاً وقت الفطور، وعلى خديه احتقان محموم، فقلت له: «أنت تجهد نفسك يا صديقي. سمعتك تمشي أثناء الليل». أجابني: «لا أتمكن من النوم، هذه المشكلة الجهنمية تستنفد

كل طاقاتي. من الصعب أن أحتمل أن عاملاً بسيطاً يعيق البحث فيما أصبحت كل الأمور في حكم المنتهية. أعرف الرجلين، والزورق البخاري، وكل شيء؛ ومع ذلك لم تصلني أية أخبار لقد اتصلت بوكالات أخرى للمشاركة في البحث ولجأت الى كل الوسائل المتاحة لي. النهر بكامله خضع للتفتيش على الجانبين، لكن لا شيء، ولم تصل السيدة سميث أخبار من زوجها أيضاً كل هذا سيدفعني قريباً الى الاستنتاج بأنهما أغرقا الزورق، لكن أموراً أخرى تجعلني أرفض هذا الاحتمال».

- «أم أن السيدة سميث وضعتنا في بداية طريقة مغلوبة؟»
- «أعتقد أن هذا مرفوض. قمت بتحريات حول الأمر، وعرفت أن هناك بالفعل زورقاً خشبياً بتلك الأوصاف».

- «هل من الممكن أن يكون الزورق صعد في النهر؟»
- «فكرت في هذه الامكانية، وهناك مجموعة موكلة بالبحث حتى ريتشموند، إذا لم تصل أخبار اليوم سوف أشارك غداً سعياً للوصول الى الرجلين أكثر من السعي للوصول الى القارب، من المؤكد سنعرف المزيد».

لكن هذا لم يحدث، لم تصلنا كلمة واحدة من ويغنز ومن المجموعات الأخرى. كانت الصحف كلها تتحدث عن مأساة نورود، وكل المقالات بدت عدائية لتاديوس شولتو المسكين، لكن لا تفاصيل جديدة في أي من تلك المقالات عدا الإشارة الى اجراء استجواب في اليوم التالي. في المساء ذهبت الى كامبرويل لأنقل للسيدتين أخبار فشلنا، وحين عودتي وجدت هولز نكد المزاج

ومكتئباً. كان بالكاد يردّ على أسئلتني وشغل نفسه طوال السهرة بالقيام بتحليل كيميائيّ معقّد اشتمل على تسخين المعوّجات وتقطير البخار وانتهى بتصاعد رائحة كادت تحملني على مغادرة الشقة. وحتى ساعات الفجر الأولى كنت أسمع صوت خشخشة الأنابيب الذي يدلّ على استمراره في تجربته التي صدرت عنها رائحة كريهة. باكراً استيقظت مع الفجر وأصبت بخوف ودهشة حين رأيته واقفاً بقرب سريري، كان يرتدي ثياب بحار بالاضافة الى سترة ووشاح أحمر لفه حول رقبته.

قال لي: «سأبحث بنفسي على امتداد مجرى النهر يا واتسون. كنت أفكر في الأمر ولم أجد إلا طريقاً واحداً للوصول إلى الحلّ. إنه يستحقّ المحاولة على أية حال».

قلت: «أستطيع مرافقتك بالتأكيد».

- «لا؛ بقاؤك هنا في مكاني له فائدة أكثر أهمية. أنا لا أودّ الذهاب لأنه من المحتمل وصول أخبار اثناء النهار، مع أن ويغنز لم يكن متحمساً لذلك الباردة، أريدك أن تفتح جميع الرسائل والبرقيات وأن تأخذ المبادرة التي تبدو مناسبة لك في حال وصول أخبار جديدة، هل أستطيع الاعتماد عليك؟».

- «بكل تأكيد».

- «لن يكون بإمكانك إرسال أية برقية لي، لأنني لا أستطيع تحديد مكان تواجدي. إذا حالفني الحظ لن أغيب مدة طويلة، ولا بدّ أنني سأحصل على معلومات قبل عودتي».

حان وقت الفطور ولم يطرأ ما هو جديد. تناولت صحيفة

ستاندرد وجدت فيها مقالة جديدة حول القضية.

«بخصوص مأساة نورود العليا نشير الى أن الأمور باتت تأخذ مساراً أكثر تعقيداً وغموضاً مما كان مفترضاً في البداية، فقد تبين استناداً الى دليل جديد انه من المستحيل أن يكون للسيد تاديوس شولتو أية علاقة بالقضية. وقد تم مساء البارحة اطلاق سراحه مع مدبرة المنزل السيدة برنستون. ولكن يبدو أن لدى الشرطة معلومات تكشف بواسطتها هوية المجرمين الحقيقيين، وهذا ما يتم ملاحقته من قبل آتلنابي جونز، من سكوتلاند يارد، بما يتمتع ويشهد له به من نشاط وذكاء. وقد يُصار الى اعتقال أشخاص آخرين في أية لحظة».

قلت في نفسي: «هذه نتيجة مرضية حتى الآن، فصديقنا شولتو صار في أمان. لكن ما هي تلك المعلومات الجديدة، علماً بأن مثل هذا الكلام يقال عادة عندما ترتكب الشرطة خطأ فادحاً».

القيت بالجريدة على الطاولة، لكنني لمحت اعلاناً في عمود الاعلانات الشخصية يقول:

«مفقود - المراكبي موردكاي سميث وابنه جيم غادرا رصيف سميث حوالي الساعة الثالثة صباح الثلاثاء الماضي في الزورق البخاري أورورا، وهو أسود اللون وعليه خطان باللون الأحمر، ومدخنته سوداء ولها إطار أبيض، وسيدفع مبلغ خمسة جنيهات لمن يقدم معلومات الى السيدة سميث، في رصيف سميث، أو في ٢٢١ ب بايكر ستريت، حول مكان وجود موردكاي سميث المذكور والزورق أورورا».

كان هذا الاعلان بالتأكيد من هولز. لأن عنوان بايكر ستريت

وحده يؤكد ذلك. وبدأ لي عملاً مبدعاً لأن الهاربين قد يقرأونه ولا يرون فيه أكثر من القلق الطبيعي لزوجته على مصير زوجها المفقود.

مرّ النهار ببطء، وفي كل مرة أسمع فيها طرقاتاً على الباب أو وقع خطي رشيقه كنت أعتقد أن هولز عاد أو أن شخصاً يحمل رداً على الاعلان. حاولت أن أقرأ لكن أفكاري كانت تنتقل الى قضيتنا الغريبة والى المجرمين المتشابهين اللذين كنّا نطاردهما. هل من المحتمل أن يكون هناك نقص أساسي في الاستنتاج الذي وضعه رفيقي؟ وهل من الممكن أن يكون عقله النبیه والمبتكر قد وضع تصوّراً نظرياً استناداً الى مقدمات خاطئة؟ لم يسبق لي أن شاهدته يرتكب خطأ، لكن اذكى المفكرين قد ينخدع أحياناً. إنه باعتقادي قابل للوقوع في الخطأ بسبب شدة تعقيد أسلوبه في التفكير - ورغبته في صياغة تفسير بارع وغريب رغم وجود تفسير مألوف وأكثر بساطة بمتناول يده. لكن، ومن ناحية أخرى، لقد اطلّعت بنفسني على الاثبات، وسمعت الأسباب التي دفعت به الى استنتاجاته. حين ألقيت نظرة على السلسلة الطويلة من الظروف الغريبة، وجدت مجموعة منها عادية بذاتها، لكنها جميعاً تفضي الى الاتجاه نفسه، لم أستطع أن أنكر بأنه لو ثبت عدم صحة التفسير الذي وضعه هولز، فإن الرأي الصائب لن يكون أقل غرابة وإثارة للدهشة.

في الساعة الثالثة من بعد الظهر رنّ جرس الباب بإلحاح، وسمعت صوتاً آمراً في القاعة، وفوجئت حين دخل عليّ السيد أتلناي جونز. كان مختلفاً عن الأستاذ الفظ والمبدع الذي أشرف على القضية بكل ثقة في نوروود العليا. كانت ملامحه كئيبة، ومشيته تدلّ على التواضع وحتى على الاعتذار.

قال: «يوم سعيد يا سيدي، عرفت أن السيد شرلوك هولمز ليس هنا».

- «أجل، ولست متأكداً من موعد رجوعه، لكن لعلك ترغب في انتظاره، تفضل بالجلوس وجرب هذا النوع من السيجار»
- «شكراً، لا مانع لدي»، ومسح وجهه بمنديل أحمر مزين بالرسوم.

- «ويسكي مع صودا؟».

- «حسناً، نصف كأس. الطقس حار جداً بالنسبة لهذا الوقت من السنة، ولدي ما يشغل بالي ويثير قلقي. أنت تعرف رأيي في قضية نوروود؟».

- «أذكر أنك شرحتة مرة أمامي».

- «حسناً، أنا مُجبر الآن على إعادة التفكير فيه. لم أكد أحكم الطوق حول السيد شولتو حتى انسل فجأة عبر تغرة في الوسط استطاع أن يقدم دليل براءة لا مجال للطعن فيه. فهو منذ غادر غرفة أخيه كان دائماً برفقة شخص أو آخر. لذلك ليس من الممكن أن يكون هو الذي تسلق الجدار الى السطح لدخول الغرفة. هذه قضية غامضة جداً، وسمعتي المهنية في خطر. أكون سعيداً لو حصلت على بعض المساعدة».

- «كلنا نحتاج الى مساعدة أحياناً».

قال بصوت أجش يوحى بالثقة: «صديقك شرلوك هولمز رجل رائع يا سيدي. إنه لا يقبل الفشل. عرفته من قبل وهو يتناول قضايا عديدة ولم أر بعد القضية التي يعجز عن إيجاد حل لها. إنه فريد

في أسلوبه وربما يكون سريعاً في التوصل الى نظرياته، لكنه على أية حال سيصبح مفتشاً يبشر بالنبوغ والنجاح، وأنا لا أتورع عن اعلان ذلك. لقد وصلتني برقية منه هذا الصباح، وفهمت منها أنه توصل الى دليل ما في القضية. هذه هي البرقية».

تناول البرقية من جيبه وسلمني إياها، كانت رسالة من بوبلار في الساعة الثانية عشرة ظهراً، وهي تقول:

«إذهب الى بايكر ستريت في الحال. في حال تأخري انتظرنى هناك أكاد أحكم الوثائق حول عصابة شولتو. تستطيع مرافقتنا الليلة إذا أردت أن تكون حاضراً في المرحلة الأخيرة».

قلت. «هذه البرقية تبشر بالخير. إنه بالتأكيد تمكّن من التقاط الرائحة ثانية».

قال جونز بارتياح ظاهر: «آه، هو أيضاً كان واقعاً في الخطأ. حتى الأفضل بيننا يتعرّض للتضليل أحياناً، بالتأكيد قد يكون إعلانه هذا إنذاراً كاذباً لكن واجبي كرجل قانون يحتم عليّ ألا أترك أية فرصة متاحة لي. هناك شخص يطرق الباب، لعله هو».

سمعنا وقع خطى ثقيلة على السلم، وصوت أنفاس رجل اختلطت باللهات وكأنه يحاول أن يسترجع تنفسه الطبيعي بصعوبة توقف بضع مرات وكأن صعود السلم كان شاقاً بالنسبة له، ثم وصل إلى الصالة أخيراً؛ شكله كان يتلاءم مع الأصوات التي سمعناها: رجل كهل، يرتدي زيّ البحّارة، وسترته القديمة مزرّرة حتى رقبتة. ظهره كان منحنيّاً، وركبته ترتجفان، وتنفسه يدل على إصابته بربو حاد. وفيما كان متكئاً على عصا غليظة من خشب السنديان كان كتفاه

يرتفعان ويهبطان بجهد لدفع الهواء الى رئتيه. ألقى على رقبتة شالاً ملوناً، ولم أتبين من وجهه سوى عينيْن سوداوين تلتمعان ذكاءً، ويغطيهما حاجبان كثيفان من الشعر الأبيض، وسبيلتان جانبيتان رماديتان. بدا لي أنه بحار قدير أوقعه الفقر والشيخوخة.

قلت له: «ماذا أستطيع أن أفعل لأجلك يا سيدي؟».

نظر حوله ببطء كما يفعل الرجال المسنون وقال: «هل السيد شرلوك هولمز هنا؟».

- «لا، لكنني أحل مكانه، تستطيع أن تقول لي ما تحمله اليه».

- «يجب أن أخبره شخصياً بالأمر».

- «قلت لك أنني أحل مكانه. هل يتعلق الأمر بقارب موردكاي

سميث؟».

- «أجل، أنا أعرف جيداً مكانه. وأعرف مكان وجود الرجلين

الذين يبحث عنهما. وأعرف مكان الكنز، أعرف كل شيء عنه».

- «قل لي ماذا تعرف إذاً وأنا سأنقل كل المعلومات اليه».

قال بعناد فظ: «يجب أن أخبره شخصياً بالأمر».

- «حسناً، يجب أن تنتظره إذاً».

- «لا، لا، لن أضيع نهراً بطوله اكراماً لأحد. إذا كان السيد

هولمز ليس هنا، عليه أن يكتشف الأمر بنفسه أنا لا يهمني أحد

منكما ولن أتفوّه بكلمة واحدة».

مشى متثاقلاً نحو الباب، فأسرع أتلناي جونز ووقف أمامه

قائلاً:

- «مهلاً يا صديقي، انك تعرف معلومات هامة، ولن تخرج هكذا، سوف نبقى هنا، رضيت بذلك أم لا، حتى عودة صديقنا». أسرع الكهل قليلاً باتجاه الباب، لكنه أدرك أنه لا جدوى من مقاومته لأن أتلناي جونز كان واقفاً يسد الباب أمامه.

صرخ وهو يضرب الأرض بعصاه: «ما هذه المعاملة السيئة! أتيت إلى هنا لمقابلة رجل نبيل، وأنتما تمسكان بي وتعاملانني على هذا النحو، أنا الذي لم يسبق لي أن رأيتهما من قبل!».

قلت له: «لن يكون وضعك سيئاً. سوف نعوض لك وقتك الذي ضاع. اجلس هنا على الأريكة ولن تنتظر طويلاً معنا».

جلس وهو مقطب الجبين وأسند رأسه على راحتيه. تابعت وجونز التدخين وتبادل الحديث، وفجأة سمعنا صوت هولز يقول لنا: «تستطيعان أن تقدما لي سيجاراً أيضاً».

أجفنا صوته ورأياه يجلس بجانبنا ينظر إلينا بسعادة ومرح، قلت له مذهولاً: «هولز! أنت هنا! لكن أين هو الرجل الكهل؟».

قال وهو يحمل كتلة من الشعر الأبيض: «ها هو الرجل الكهل، ها هو: شعر مستعار، شاربان، حاجبان وكل شيء. كنت أعتبر أن تنكري معقولاً لكنني لم أتوقع أن يخوض مثل هذه التجربة بنجاح».

قال جونز مبتهجاً: «أيها المحتال! أنت ممثل ناجح وفريد من نوعه، لقد أجدت ذلك السعال الذي يعاني منه نزلاء بيوت البر، ورجلاك الضعيفتان تساويان عشرة جنيهات أسبوعياً. لكن انتبه

فلقد شعرت بأنني رأيت من قبل ذلك اللمعان في عينيك. أنت لم تتفوق علينا بسهولة كما رأيت».

قال وهو يتسعل سيجاره «أمضيت النهار في اعداد هذا الزي، هناك مجموعة كبيرة من المجرمين تعرفني الآن، كما تعلمان - خاصة حين بدأ صديقي هنا في نشر مجموعة من القضايا التي توصلت الى إيجاد حلول لها. لذلك فأنا لا أستطيع خوض الحرب إلا تحت غطاء زي تنكري بسيط كهذا. هل وصلتك برقيتي؟».

— «أجل، ومن أجل ذلك أتيت».

— «ما هي أخبار القضية عندك؟».

— «لم تصل الى نتيجة بعد. لقد أطلقت سراح اثنين من الموقوفين، وليس لدي أي دليل ضدّ الاثنين الآخرين».

— «لا بأس، سأعطيك اثنين بدلاً منهما. لكن عليك أن تضع نفسك بتصرّفي. ستحصل على الثناء الرسمي كلّهُ، ولكنني أريدك أن تتصرف كما أشير عليك. هل أنت موافق على ذلك؟».

— «تماماً، إذا ساعدتني في القبض على الرجلين».

— «حسناً أريد أولاً قارباً سريعاً للشرطة - زورقاً بخارياً - يكون متوقفاً عند ويست مينستر في السابعة مساءً».

— «هذا سهل. هناك دائماً زورق في هذا الوقت، لكنني سأجتاز الشارع الآن وأتصل بالمركز هاتفياً للتأكد من ذلك».

— «وأريد أيضاً رجلين قويّين في حال واجهتنا مقاومة»

— «سيكون هناك رجلان أو ثلاثة في الزورق، وماذا أيضاً؟»

– «عندما نلقي القبض على المجرمين سنضع يدينا على الكنز. أعتقد أن صديقي يودّ أن يأخذ الصندوق الى السيدة الشابة التي تمتلك نصف محتوياته. فلتكن أول واحدة تفتحه. أليس كذلك يا واتسون؟».

– «سأكون في غاية السعادة».

قال جونز وهو يهزّ رأسه: «هذا إجراء غير عاديّ. غير أن القضية كلها غير عادية، ولا بأس في التغاضي عنه. ولكن يجب أن يسلم الكنز كله فيما بعد الى السلطات المختصة الى أن ينتهي التحقيق».

– «بكل تأكيد. هذا عادي. ولكن هناك نقطة أخرى، أودّ الحصول على عدة تفاصيل حول هذه العملية من جوناثان سمول شخصياً، فأنت تعرف أنني أحبّ معرفة أدقّ التفاصيل في كلّ قضية أتولّى التحقيق فيها. أرجو ألا يكون لديك مانع بأن التقى به على نحو غير رسمي إما هنا في غرفتي أو في مكان آخر طالما أنه سيكون تحت حراسة كافية؟».

– «حسناً، أنت سيّد الموقف، لم يثبت لديّ بعد وجود جوناثان سمول هذا لكن إذا نجحت أنت في القبض عليه لا أرى كيف أستطيع أن أمنعك من مقابلته».

– «كل شيء مفهوم إذاً؟».

– «تماماً، هل هناك شيء آخر؟».

– «يبقى أنني أصرّ على بقائك لتناول العشاء معنا. سيكون

الطعام جاهزاً خلال نصف ساعة. لدينا محار ودجاج وعدة
زجاجات من النبيذ الأبيض - واتسون لم يتسن لك بعد أن تكتشف
مواهي كمسؤول عن البيت».

- ١٠ -

نهاية
ساكن الجزيرة

ساد العشاء جوّ مرح، كان هولمز يجيد أصول الحديث حين يشاء، وفي تلك الليلة أتحفنا بحديثه الشيق. كان في حالة من النشاط الذهني والعصبيّ، ولا أذكر أنني رأيته على هذا القدر من التألق من قبل. تناول في حديثه مجموعة من الموضوعات - المسرحيات الأعاجيبية، وصناعة الفخار في القرون الوسطى، وكمان ستراديفاريوس، والبوذية في سيلان، والسفن الحربية في المستقبل - وأعطى كل موضوع حقّه كما لو أنه أعدّ دراسة مخصّصة حوله، مزاجه المبتهج كان ردّة فعل على فتوره الكئيب في الأيام الماضية. وأتلناي جونز كان أيضاً يحبّ الاختلاط بالآخرين في ساعات الراحة وبدأ مولعاً بالطيّب من المأكّل. وبالنسبة لي كنت سعيداً بقرب نهاية مهمتنا، ولقد أثر عليّ هولمز أيضاً بمرحه. وأثناء العشاء لم يشر أيّ منّا الى السبب الذي جمعنا.

وبعد رفع الأطباق، ملأ هولمز ثلاثة كؤوس من البورت وقال: «نشرب نخب نجاح خطتنا. والآن حان الوقت للذهاب. هل معك مسدس يا واتسون؟».

- «لدي مسدسي القديم منذ أيام الخدمة العسكرية».

– «من الأفضل أن تأخذه معك إذاً. يجب أن نكون مستعدين لكل طارئ». يبدو أن العربة في انتظارنا عند الباب، لقد طلبتها لتصل في السادسة والنصف».

كانت الساعة السابعة والنصف تقريباً حين وصلنا الى رصيف ويستمينستر ووجدنا الزورق البخاري في انتظارنا أخذ هولمز يتأمل ثم سأل جونز قائلاً: «هل في المركب علاقة تدل على أنه بوليسي؟».

– «أجل، ذلك الضوء الأخضر في جانبه».

– «انزعه إذاً».

وبعد اجراء هذا التعديل البسيط، صعدنا على متن الزورق، ورفعت الحبال. جلسنا نحن الثلاثة في المؤخرة، ووقف أحد الرجال عند الدفة، بينما تولى آخر الاشراف على المحركات، وجلس مفتشان قوياً البنية في المقدمة.

سأل جونز: «إلى أين؟»

– «إلى البرج. اطلب منهم التوقف مقابل حوض جاكوبسون».

كان الزورق سريعاً جداً. فقد انطلقنا بجانب خطوط طويلة من مراكب نقل البضائع التي بدت لنا وكأنها متوقفة. ابتسم هولمز بارتياح ونحن نتجاوز زورقاً بخارياً آخر ونتركه خلفنا.

قال: «يجب أن نتمكن من اللحاق بأي مركب في النهر».

– «ليس تماماً الى هذا الحد. لكن هناك عدد قليل من الزوارق التي تتفوق علينا بالسرعة».

– «يجب ان نتمكن من اللحاق بالأورورا، وهو زورق معروف
بسرعته. سأخبرك يا واتسون كيف تطوّرت الأمور. أنت تذكر كم
كنت متضايقاً لأن عائقاً بسيطاً وقف في طريقي؟».

– «أجل».

– «منحت تفكيري فترة من الراحة التامة عبر الانهماك في القيام
بتجربة كيميائية. أحد كبار رجال الدولة عندنا قال مرة إن تغيير
العمل هو أفضل راحة – وهكذا كان. عندما نجحت في تدوير
الهيدروكربون عدت الى مشكلة عائلة شولتو وأعدت التفكير فيها
منذ البداية، كان رجالي يجوبون النهر صعوداً ونزولاً دون فائدة.
لم يكن الزورق متوقفاً في أي مرسى أو مكان للوقوف، وهو لم يعد الى
مرسأه الخاص. ومن الصعب أن يكونوا قد أغرقوه لإخفاء آثارهم،
مع أن هذا الاحتمال يظل وارداً في حال فشلت كل الاحتمالات
الأخرى. كنت أعرف أن سمول يتمتع بقدر من الذكاء لكنه يعجز
عن التفكير البالغ الدقة، فهذا يتطلب تعليماً عالياً. ثم فكرت أنه
أمضى فترة في لندن – كما تبين لنا بأنه كان يراقب باستمرار
بونديتشري لودج – لذلك هولن يتمكن من مغادرة مخبئه بناء لقرار
مفاجيء، فهو يحتاج الى بعض الوقت، لنهار مثلاً كي يرتب أموره،
على أية حال، هكذا تبدو احتمالات ما وقع من أحداث».

قلت له: «لكن هذا التصوّر يبدو ضعيفاً في نظري. لأنه من
المحتمل أن يكون قد رتب أموره قبل البدء بالقيام بالرحلة».

– «لا، لا أعتقد ذلك، هذا الملجأ هو بالنسبة له مأوى قيم لن
يتخلّى عنه إلا في حال التأكد من أنه لم يعد بحاجة اليه. وهنا
تبادرت الى ذهني مسألة أخرى. لا شك أن جوناثان سمول شعر

بأن شكل مرافقة الغريب، مهما حاول أن يغطيه بالثياب، سوف يلفت الأنظار وقد يشار إليه بأن له علاقة بمأساة نوروود. كان ذكياً بالقدر الكافي لينتبه الى هذه المشكلة. فغادر هو ومرافقه مكان تواجدهما أثناء الليل وكان عليهما الرجوع قبل ضوء النهار. كانت الساعة حوالي الثالثة صباحاً عندما جاء لأخذ الزورق كما قالت لنا السيدة سميث. وبعد حوالي ساعة يطلع النهار ويبدأ بعض الناس أعمالهم، لذلك اعتقد أنهما لم يقصدا مكاناً بعيداً، أعطيا سميث مبلغاً كبيراً كي يلزم الصمت، وحجزا زورقه من أجل الهروب في المرحلة الأخيرة ثم رجعا بسرعة الى مخبئهما ومعهما صندوق الكنز. وبعد عدة أيام حين يتسنى لهما الاطلاع على وجهة النظر السائدة من خلال الصحف، وفيما إذا كانت تدور الشبهات حولهما، سوف يستقلان الزورق تحت ستار الظلام الى باخرة في غرايفسند أو داونز، وهما بالتأكيد أعداء العدة للقيام برحلة طويلة الى أميركا أو إلى الجزر المستعمرة القريبة منها.

ـ «لكن ماذا عن الزورق؟ هذا لا يمكنهما أخذه الى المخبأ».

ـ «هذا صحيح. اعتقد أنه ليس بعيداً بالرغم من أننا لم نعثر عليه. وضعت نفسي مكان سمول وأخذت أفكر بما يتمتع به من مقدرة، سيظن أن ارجاع الزورق الى المرسى يجعل البحث عنهما سهلاً فيما إذا قررت الشرطة تتبع أثرهما. فكيف إذا يستطيع اخفاء الزورق وجعله في الوقت نفسه في متناول اليد عند الحاجة اليه؟ أخذت أفكر ماذا أفعل لو كنت مكانه. لم أتوصل إلا إلى طريقة واحدة: أقوم بتسليم الزورق الى شخص يتولى بناء القوارب أو تصليحها وأعطيه تعليمات لإجراء بعض التعديلات الطفيفة في

الزورق. ثم يؤويه هو في السقيفة أو الباحة، ويكون بالتالي بعيداً عن الأنظار، وبذلك لن يستغرق تحريكه ثانية إلا ساعات قليلة»
- «هذا يبدو بسيطاً جداً».

- «إن هذه الأمور البسيطة هي الأكثر قابلية للإهمال. وقررت تبني تلك الفكرة فبدأت بارتداء زيّ البحار هذا وأخذت أسأل في كلّ الأحواض على امتداد مجرى النهر. وبعد خمسة عشر أو ستة عشر موقعاً وصلت الى حوض جاكوبسون فعلمت أن شخصاً برجل خشبية سلّم لهم الأورورا منذ يومين، وأشار إلى أنه مصاب بعطل بسيط في الدقّة، وقال لي كبير العمال: «ليس هناك أي عطل في الدقّة، ها هو هناك بالخطّين الأحمرين». وفي تلك اللحظة أتى مورديكاى سميث المالك المفقود. وكان في حالة سيئة من كثرة تناول الخمر، لم أكن لأعرفه بالطبع لولا أنه أعلن عن اسمه واسم زورقه وقال: «أريده هذه الليلة في الساعة الثامنة. انتبه في الساعة الثامنة تماماً، لأنّ معي سيدين لا يقبلان الانتظار». لا شك أنهما دفعا له بسخاء، إذ بدا أنّ معه فائضاً من النقود وهو يوزّع التسلّات على العمال.

تبعته لمسافة قصيرة لكنه دخل الى إحدى الحانات، قررت العودة الى الحوض؛ وأنا في طريقي اليه التقيت بأحد رجالي فوضّعت حارساً على الزورق عليه أن يقف عند حافة الماء ويلوح لنا بمنديله حين يتحرك الزورق. سنكون في انتظاره وأنا أعتقد أننا سنتمكن من القبض عليهم جميعاً وعلى الكنز أيضاً».

قال جونز: «لقد وضعت خطة دقيقة سواء كان الرجلان مجرمين أم لا، لكن لو كان الأمر بيدي لكنت وضعت فرقة من الشرطة في

حوض جاكوبسون وألقيت القبض عليهم جميعاً حين وصولهم».

- «لكنك لن تنجح في ذلك. سمول يتمتع بقدر من الدهاء، لذلك فهو سيرسل شخصاً في البداية ولو صادف وجود ما يثير الريبة، فإنه سيبقى مختفياً لأسبوع آخر».

قلت لهولز: «كان بإمكانك ملاحقة مورديكي سميث الذي كان سيقودك الى المخبأ».

- «في هذه الحالة كنت سأضيع وقتي لأنني متأكد بأن هناك احتمال واحد في المئة أن يكون سميث على اطلاع على مكان المخبأ. وطالما أن لديه الخمرة والنقود لماذا يطرح أسئلة؟ إنهما يرسلان اليه بما يجب عليه أن يفعل، لقد فكرت بكل الاحتمالات، وهذا هو أفضل أسلوب ممكن».

فيما كنا نتحدث كان الزورق يجتاز مجموعة كبيرة من الجسور المشيئة فوق نهر التايمز. وبعد أن تركنا المدينة كانت أشعة الشمس الأخيرة تضيء الصليب على قبة كنيسة القديس بولس. ولم نصل الى البرج إلا مع الغروب.

قال هولز وهو يشير الى مجموعة من الصواري وحبال الأشرعة على الضفة التي تقع عليها «سماري»: «هذا هو حوض جاكوبسون. يجب أن نمكث هنا ونتحرك ببطء شديد تحت ستار قوارب البضائع هذه». وتناول منظره الليلي من جيبه وأخذ يراقب الشاطئ، ثم قال: «أرى الحارس في مكانه لكنه لا يرفع منديلاً».

قال جونز بحماس: «ولم لا نتقدم في النهر مسافة وننتظرهم». كان الجميع متحمسين، حتى رجال الشرطة والبحارة، الذين لم تكن

لديهم سوى فكرة غامضة عما يدور حولهم.

ردّ هولز: «لا يحقّ لنا أن نعتبر أي شيء أكيداً، فمع أن احتمال ابحارهم في اتجاه مجرى النهر هو الأرجح، لكننا لسنا متأكدين من ذلك. ونحن من موقعنا هذا نستطيع مراقبة مدخل الحوض دون أن نلفت الأنظار، سيكون الليل صافياً وينير ضوء القمر لنا الطريق يجب أن نمكث حيث نحن، انظروا الى البعيد الى ذلك الجمع من الناس، يسرون على ضوء مصابيح الغان».

ـ «هؤلاء عمّال الحوض، لقد انتهوا من عملهم».

ـ «محتالون وسخون، لكنني أعتقد أن في أعماق كلّ منهم وميض خالد. هذا لا يبدو على ملامحهم عندما تنظر اليهم، وليست هناك أية فرضية بديهية للدلالة عليه. لا شك أن الانسان لغز غامض».

قلت: «البعض يصفونه بأنه روح متجسدة في حيوان».

قال هولز: «وينوود ريد يعالج الموضوع جيداً، إنه يشير الى أن الفرد هو كناية عن احجية لا حلّ لها، لكن المجموع يصبح حقيقة رياضية. أنت لا تستطيع مثلاً أن تتنبأ بعمل سيقدم عليه انسان ما، لكنك تستطيع أن تقول بدقة ما الذي تنوي القيام به مجموعة من الناس، الأفراد يختلفون، لكن النسب تظل ثابتة، هكذا يقول الاحصائي. لكن هل هذا منديل؟ هناك بالتأكيد رفرفة بيضاء بعيدة».

قلت بصوت عالٍ: «أجل، هذا رجلك.. أستطيع رؤيته بوضوح».

قال هولز: «وها هو الأورورا، انه منطلق كالشيطان! بالسرعة

القصى أيها المهندس الحق هذا الزورق البخاري بالضوء
الأصفر! لن أغفر لنفسي أبداً لو أفلت منّا!.

انسلّ الزورق بخفاء من مدخل الحوض وتمكن من الانزلاق بين
مركبين أو ثلاثة، كان ينطلق بسرعة هائلة حين تمكّنا من رؤيته. كان
يبحر باتجاه مجرى النهر، بالقرب من الضفة، أخذ جونز يتأمله
بانقباض وهو يهزّ رأسه، ثم قال: «انه سريع جداً وأنا لست متأكداً
من أننا سنلحق به».

قال هولز وهو يشد على أسنانه: «يجب أن نلحق به. أكثروا من
الوقود! اجعلوا الزورق يندفع بكلّ طاقته! حتى لو أحرقناه، يجب
أن نمسك بهم!».

صرنا على مسافة قريبة من الأورورا، المحركات كانت تهدر
والآلات القوية تحدث أزيزاً وقعقة كأنها قلب معدني ضخمة.
المقدمة العالية والحادة كانت تشق طريقها عبر مياه النهر الهادئة
وترسل تموجات على جانبي الزورق، ومع كل ارتجافة في المحركات
كان الزورق ينتفض ويرتفع كأنه كائن حيّ، مصباح أصفر واحد
كبير كان يرسل شعاعاً طويلاً مرتجفاً في الضوء أمامنا. وفي المدى
البعيد بدا الزورق الأورورا كتلة قاتمة على سطح الماء، ودوامة
الزبد الأبيض التي انتشرت خلفه تدل على مدى سرعته. اجتزنا
قوارب لنقل البضائع وبواخر ومراكب تجارية، ندخل بينها ثم
نتخطأها، نتقدم خلف هذا الزورق أو نلتفّ حول الآخر. سمعنا
أصواتاً كثيرة تلقي علينا التحية في الظلام. والأورورا لا يزال يهدر
أمامنا.

صرخ هولز وهو يطلّ على غرفة المحركات واللمعان القوي الذي

يندفع من داخلها يشعّ على وجهه حتى بدا كنسرٍ ضار: «أكثرُوا الكمية يا رجال! أكثرُوا الكمية! اجمعوا ما استطعتم من البخار!».

قال جونز وهو يحدّق باتجاه الأورورا «أعتقد أننا نزداد قريباً منه».

قلت: «أنا متأكد من ذلك. سوف نلحق به في غضون دقائق معدودة».

في تلك اللحظة ولسوء حظنا مرّت بيننا باخرة تقطر وراءها ثلاثة قوارب، تفادينا الاصطدام بها بتغيير الدفة بسرعة، ثم درنا حولها وتابعنا مطاردة الأورورا الذي كسب مسافة تفوق المائتي يارد. لكنه كان لا يزال على مرأى أبصارنا، فيما المساء المعتم والمتقلب كان يتحوّل الى ليل صافٍ تزين النجوم سماءه، مراجل المحركات كانت مجهدة الى أقصى درجة، والغطاء الضعيف كان يهتز ويصدر صريراً من الطاقة العنيفة التي تدفع بزورقنا الى الأمام. انطلقنا بمحاذاة أرصفة ويست إنديا، ثم وصلنا الى دبتفورد ريتش، ودرنا حول جزيرة دوغن، صارت الكتلة المعتمة أمامنا أكثر وضوحاً في شكل الأورورا الجميل. سلّط جونز النور الكاشف على الزورق كي نتبين بوضوح ملامح الأشخاص الذين يحملهم. أحدهم جلس عند الدفة، وضع بين رجليه شيئاً أسود وانحنى فوقه، وبالقرب منه رأينا كتلة سوداء بدت كأنها كلب «نيوموند لند». الصبي أمسك بذراع الدفة، وأمام وميض الفرن الأحمر كان سميث يجرف الفحم باصرار وهو عاري الصدر. ربما شكوا في البداية حول ما إذا كنّا نلاحقهم أم لا، لكنهم الآن تأكدوا من ذلك ونحن نقتفي أثرهم في

كل انحراف أو انعطاف يقومون به. حين وصلنا الى غرينويتش كنا على بعد حوالي ثلاثمئة خطوة خلفهم، لقد طاردت مخلوقات عديدة في بلدان مختلفة خلال حياتي المهنية المتنوعة، لكنه لم يسبق لأي نشاط قمت به أن منحني تلك الرعشة العميقة كهذه المطاردة المجنونة والهائجة على مياه التايمز. بثبات كنا نقرب منهم، ياردة بعد ياردة. وفي سكون الليل كان يتراعى الى مسامعنا صوت آلات زورقهم وهي تنفث البخار وتخشخش. الذي كان واقفاً عند الدفة لا يزال منحنيًا وذراعااه تتحركان وكأنه مشغول، ومن حين الى آخر كان ينظر الينا ويقيس بنظره المسافة التي تفصل بيننا. أخذت المسافة بيننا تتضاءل، فصرخ جونز طالباً منهم التوقف. كنا على مسافة لا تزيد عن حجم أربعة قوارب، والزورقان يتقدمان في أقصى سرعة. كنا في فسحة منبسطة من النهر، باركنغ ليفل من جهة، ومستنقعات بلمستيد المعتمدة من الجهة الثانية. وقف الرجل الذي يمسك بالدفة وانتصب أمامنا وأخذ يهز يديه المطبقتين وهو يشتم بصوت أجش وعال. كان رجلاً طويلاً، قوي البنية، وفيما كان يقف برجلين متباعدتين رأيت أن رجله اليمنى ومن الفخذ حتى الأسفل كانت مجرد عصا خشبية. وعند سماع صراخه الحاد والغاضب اضطرب سائر الموجودين على متن الزورق، ثم رأيت بوضوح رجلاً أسود صغيراً - أصغر رجل رأيته - رأسه كبير ومشوه تغطيه كتلة من الشعر الأشعث والمتشابك، كان هولز قد تناول مسدسه، وأنا أيضاً استليت مسدسي بسرعة عند مشاهدة هذا المتوحش المخيف. كان يلفّ حوله معطفاً فضفاضاً أو بطانية ولم يظهر منه إلا وجهه الذي كان كافياً ليسرق النعاس من العيون. لم أر من قبل ملامح مرسومة بهذه الوحشية والقسوة. عيناه الصغيرتان تألقتا متقدتين

بنور داكن، وشفته الغليظتان كانتا مرتدتين لتكشفاً عن أسنانه التي كانت تصرّ وتصطك بغضب حيواني.

قال هولز بهدوء: «أطلق النار عليه إذا رفع يده»

كنا على مسافة قارب منهم ونكاد نمسك بهم. رأيت الرجلين واقفين بوضوح، الرجل الأبيض برجليه المتباعدتين وهو يتابع الشتائم، والقزم المشؤوم بوجهه المرعب وأسنانه الصفراء القوية التي بدت في الضوء الكاشف وهي تصرّ حنقاً وغضباً.

كان من الأفضل لنا أن يقف واضحاً أمامنا. حتى ونحن نراقبه انتزع من تحت رداءه علبة دائرية خشبية صغيرة، تشبه مسطرة المدرسة، وأمسكها بأسنانه. انطلقت المسدسات معاً، استدار رافعاً ذراعيه وأطلق سعالاً مخنوقاً قبل أن يقع في الماء، ومن بين التموجات البيضاء لمحت عينيه المثلثتين حقداً وضغينة. في الوقت نفسه أسرع صاحب الرجل الخشبية الى الدفة وأدارها بحيث اتجه القارب مباشرة نحو الضفة الجنوبية.

تجاوزنا مؤخرته ولم يكن يفصل بيننا أكثر من بضعة أقدام. استدرنا وراءه مباشرة، لكن الأورورا كان قد وصل الى الشاطئ. كان المكان مقفراً وموحشاً، وضوء القمر يغمر مساحة واسعة من المستنقعات وبرك المياه الآسنة وأحواض النباتات المتعفنة. ارتطم الزورق بهدوء بالوحد الذي يغمر الشاطئ، فارتفعت مقدمته وغمر الماء المؤخرة. قفز المجرم الهارب الى الأرض لكن رجله الخشبية انغرست مباشرة في التربة الرخوة. وأخذ يتلوّى وهو يبذل جهداً كبيراً دون فائدة، لم يتمكن من أن يخطو خطوة واحدة الى الأمام أو الى الوراء، وأخذ يصرخ في غضب عقيم ويضرب الوحد باهتياج

شديد برجله الأخرى؛ لكن محاولاته كانت تجعل رجله الخشبية تغور أكثر في التربة اللزجة. وحين وصل بنا الزورق الى الشاطئ وجدناه ثابتاً بإحكام ولم نتمكن من تخليصه إلا بالقاء حبل حول كتفيه وشدّه الى جانب زورقنا كما لو أنه سمكة مؤذية. سميت الأب، وابنه كانا يجلسان حزينين في زورقهما، وانتقلا الى زورقنا بدون اعتراض حين طلب اليهما ذلك. تمّ جذب الأورورا ثم ربط بإحكام الى مؤخرة زورقنا كان عليه صندوق حديدي يدلّ على براعة الصناعة الهندية. هذا بدون شك هو الصندوق الذي كان يحتوي على كنز عائلة شولتو المشؤوم. لم نجد مفتاحاً، والصندوق كان ثقيلاً فحملناه الى حجرتنا الصغيرة. وفيما كنا نبحر الآن عكس التيار سلطنا الضوء الكاشف على سطح الماء، لكننا لم نعثر على أثر لذلك القزم ابن الجزيرة. في مكان ما في القاع الموحل والمظلم في عمق التايمز ترقد عظام ذلك الزائر الغريب لشواطئنا.

قال هولمز وهو يشير الى باب الحجرة: «انظروا هنا. لم نطلق مسدساتنا بالسرعة المناسبة». ورأينا سهماً قاتلاً منغرماً في باب الحجرة الذي كنا نقف أمامه. يبدو أنه مرّ بيننا في اللحظة التي أطلقنا النار فيها. ابتسم هولمز وهو يتأمل وهزّ كتفيه بلا مبالاة المعهودة، لكنني اعترف بأنني أصبت بالرعب من الموت المخيف الذي كان قريباً جداً منا في تلك الليلة.

- ١١ -

كنز أغرا العظيم

جلس السجين في الحجرة مقابل الصندوق الحديدي الذي فعل
الكثير لأجله وانتظر طويلاً ليضع يده عليه، لوّحت الشمس بشرته،
وبدا الاستهتار في عينيه، امتلأت قسّمات وجهه الضارب الى
الحمرة بشبكة من خطوطٍ وتجاعيد تدلّ على الحياة القاسية التي
عاشها في العراء، في ذقنه الملتحية نتوء بارز يشير الى أنه رجل لا
يتراجع بسهولة عن هدفه. كان في الخمسين من عمره أو ما يقارب
ذلك، ذلك أن الشيب غزا شعره الأسود المتجمّد بكثافة، وجهه وهو
مرتاح ليس مزعجاً، مع أن حاجبيه وذقنه العدائية تعطي وجهه،
كما رأيت مؤخراً، تعبيراً مخيفاً إذا أُثير غضبه. إنه الآن جالس
بيديه المقيدتين على حضنه، ورأسه تدلى على صدره، وهو يتأمل
بعينه القويتين والمتألفتين الصندوق الذي كان السبب في كلّ
أعماله الشريرة، وبدأ لي أن ملامحه القاسية تعكس أساه لا
غضبه، وحين نظر اليّ مرة شعرت أن في عينيه رغبة بالمسايرة

قال له هولز وهو يشعل سيجاراً: أنا آسف يا جوناثان سمول
لأن الأمر انتهى على هذا النحو.

أجاب بصدق: «وأنا أيضاً. لا أعتقد بأنني سأفلت من التهمة

ولكنني أقسم لك بالكتاب المقدس أنني لم أرفع يدي في وجه السيد شولتو، ذلك الوحش الجهنمي الصغير، تونغاً، هو الذي أطلق عليه أحد سهامه الملعونة، لم تكن لي يد في الموضوع يا سيدي، لقد ضربت ذلك الشيطان الصغير ضرباً مبرحاً من أجل فعلته. لكنّ الخطأ كان قد وقع ومن المستحيل إصلاحه».

قال له هولز: «تفضّل سيجاراً، ومن الأفضل أن تتناول جرعة من قنينتي لأنّ ثيابك مبتلة، لكن كيف توقعت أن رجلاً صغيراً وضعيفاً كهذا الرجل الأسود يستطيع أن يتغلب على السيد شولتو ويحتجزه في الفترة التي كنت فيها تتسلّق الحبل؟».

- «أنت تعرف ما حدث وكأنك كنت هناك يا سيدي، الحقيقة أنني تمنيت أن أجد الغرفة خالية. كنت أعرف عادات البيت جيداً، وفي ذلك الوقت كان السيد شولتو ينزل عادة ليتناول عشاءه. لن أترك في هذه المسألة أية أسرار، لأن أفضل دفاع أستطيع القيام به عن نفسي هو قول الحقيقة فقط لو أن الأمر يتعلق بالرائد العجوز كنت هجمت عليه بقلب مرتاح. وما كنت سأفكر في ضربه بالسكين أكثر مما أفكر بتدخين هذا السيجار. لكن اعتباري متواطئاً في مقتل الشاب شولتو هو لعنة قاسية، فأنا لم يسبق لي أن اختلفت معه أبداً».

- «أنت الآن بتصرف السيد أتلناي جونز من سكوتلاند يارد، وهو سيمطحك الى بيتي وهناك سأطلب منك سرداً حقيقياً لما حدث. ومن الأفضل أن تقول كلّ ما عندك. أعتقد أنني أستطيع أن أثبت بأن السمّ سريع الفعالية وأن الرجل فارق الحياة قبل وصولك الى الغرفة».

- «هذا صحيح. ولم أتلق في حياتي صدمة كتك التي تلقيتها حين وصلت الى النافذة ورأيتك مكشراً ورأسه مائل على كتفه. أصابتني قشعريرة يا سيدي. وكدت أقتل تونغاً على عمله الشنيع هذا لولا أنه تسَلَّق بعجلة الى العلية لذلك ترك وراءه عصاه وبعض أسهمه أيضاً، كما قال لي، وهي التي ساعدتك على تتبع أثرنا؛ لكن كيف تمكّنت من متابعة بحثك فهذا لا أستطيع تكهّنه. وأنا لست حاقداً عليك الآن، لكنّ ما أصابني غريب فعلاً». وأضاف بابتسامة مريرة: «أنا الذي يحقّ لي امتلاك نصف مليون جنيه، أقضي النصف الأول من حياتي في تشييد حاجز لوقاية المرفأ في آندمان، ويبدو أنني سأقضي النصف الآخر في حفر مصارف المياه في دارتمور. كان يوماً ملعوناً يوم التقيت بالتاجر أشميت وعرفت بوجود كنز أغرا، الذي كان لعنة على كلّ من اقتناه. أشميت مات مقتولاً، والرائد شولتو عاش في حالة رعب وشعور بالذنب، وأنا سأعيش مستعبداً مدى الحياة».

في تلك اللحظة دخل علينا أتلناي جونز بوجهه العريض وكتفيه الضخمتين وقال، «جلسة عائلية ممتعة. أعتقد أنني سأتناول جرعة من القنينة يا هولز. حسناً نستطيع تبادل التهنة فيما بيننا. من المؤسف أننا لم نقبض على الآخر حياً، ولكن لم تكن لدينا الخيار في ذلك. وأنت يا هولز يجب أن تعترف بأننا لحقنا بالأورورا بفارق لحظات وذلك بعدما أعطى زورقنا أقصى امكانياته».

قال هولز: «لكنّ النتيجة سارة في النهاية وأنا بالطبع لم أكن أعرف أن الأورورا زورق سريع الى هذا الحد»

- «يقول سميث أنه من أسرع الزوارق الموجودة، وأنه لو كان

معه رجل آخر يساعده لم نكن لننجح في اللحاق به . وهو يقسم بأنه لم يكن يعرف شيئاً عن قضية نوروود» .

صرخ السجين قائلاً: «إنه بالفعل لا يعرف شيئاً، ولا حتى كلمة واحدة. لقد وقع اختياري على زورقه لما سمعته عن سرعته. ونحن لم نخبره شيئاً، ووعدناه بمبلغ مفر عند وصولنا الى السفينة الكبيرة، الإزميرالدا في غرايفسند، التي كانت ستحملنا الى البرازيل» .

- «في حال ثبت لدينا أنه لم يرتكب ذنباً لن يتعرض لأية عقوبة. نحن سريعون في القبض على المتهمين، لكننا لسنا سريعين في إدانتهم» .

كان الاستماع الى جونز المغرور ممتعاً وهو يمنح نفسه الحق في تبني العملية التي حصلت منذ قليل، ومن الابتسامة التي ارتسمت على وجه شرلوك هولمز عرفت أنه أدرك مغزى حديث جونز.

قال جونز: «سنصل بعد قليل الى جسر فوكسهول، وهناك ستنزل يا دكتور واتسون ومعك صندوق الكنز، لا داعي لأقول لك أنني أتحمل مسؤولية خطيرة بالسماح لك بذلك. هذا اجراء شاذ، هناك اتفاق وسوف ينفذ. لكن واجبي يحتم علي أن أرسل شرطياً لمرافقتك بما أنك تحمل هذه الوديعة الثمينة. سوف تستقلان عربة أليس كذلك؟» .

- «أجل سنستقل عربة» .

- «من المؤسف أن المفتاح ليس معنا لوضع قائمة جرد

بالموجودات. سوف تضطر لكسر القفل. أين هو المفتاح يا سيد سمول؟».

قال سمول باختصار: «إنه في قاع النهر».

— «هم! لا داعي للدخول في متاعب لا فائدة منها. لقد سببت لنا ما يكفي من المشقة. لكنني لا أظن يا دكتور، أنني محتاج الى أن أنبهك لكي تكون حذراً، عد بالصندوق الى بايكر ستريت حيث ستجدنا بانتظارك ومن هناك نذهب الى المكن».

نزلت عند جسر فوكسهول ومعني الصندوق الحديدي الثقيل ويرافقني شرطي لطيف ومؤنس. وبعد ربع ساعة وصلت بنا العربة الى منزل السيدة سيسيل فورستر، بدت الخادمة مندهشة من تلك الزيارة المتأخرة، فقالت لنا أن السيدة فورستر ستمضي السهرة خارج البيت وأنها على الأرجح ستتأخر، لكن الأنسة مورستان تجلس في قاعة الاستقبال. دخلت الى القاعة والصندوق في يدي وتركت الشرطي المتفهم في العربة.

كانت تجلس قبالة النافذة المفتوحة ترتدي ثوباً شفافاً أبيض اللون، يزينه قماش وردي عند الرقبة وعلى الخصر، كانت ترتاح في مقعدها يغمرها ضوء مصباح خافت وأشعته النحيلة تهتز على وجهها البديع، وتترك مسحة من اللمعان المعدني الباهت على خصلات شعرها الغزير والمرتب بعناية. ذراعها الأبيض تدلى على جنب المقعد، ومن طريقة جلوسها وتعابير وجهها بدت مستغرقة في حالة مكتئبة، وقفت بسرعة عند سماعها صوت وقع قدمي، وتلونت وجنتاها في الحال بتورّد مشرق من المفاجأة والسرور معاً.

قالت: «سمعت العربة وهي تتوقف. اعتقدت أن السيدة فورستر

عادت باكراً، لكنني لم أتخيل أبداً أنك أنت القادم، أية أخبار حملت معك؟».

قلت لها: «إنني أحمل اليك ما هو أفضل من الأخبار». ووضعت الصندوق على الطاولة محاولاً متابعة الحديث بمرح وسعادة لأخفي الحزن في قلبي: «إنني أحمل اليك ما هو أفضل من أخبار العالم كله؛ أحمل اليك ثروة».

نظرت الى الصندوق وسألت ببرود واضح: «هذا هو الكنز إذأ؟».

- «أجل، هذا هو كنز آغرا العظيم. نصفه لك والنصف الآخر لتاديوس شولتو. سيحصل كل منكما على مئتي ألف من الجنيهات. تصوّرني ذلك! انه يعادل عشرة آلاف جنيه كدخل سنوي، ستصبحين واحدة من السيدات الأكثر ثراء في انكلترا. اليس هذا رائعاً؟».

أعتقد أنني بالغت في تمثيل الفرح وانها اكتشفت نبذة خداع وأنا أنقل اليها تهنئتي؛ رأيت حاجبها يرتفعان قليلاً وهي تحدّق فيّ باستغراب. قالت: «الفضل يعود اليك في هذه الثروة».

- «لا، لا. ليس لي ولكن لصديقي شرلوك هولمز. فأنا لن أنجح في التصميم على اقتفاء أثر كان مرهقاً حتى لوهبته التحليلية الفذة. والحقيقة أننا كدنا نضيقه في اللحظة الأخيرة».

- «أرجوك يا دكتور واتسون اجلس وأخبرني بكل ما حدث».

نقلت لها بايجاز الأحداث التي تلاحقت منذ رأيتهما آخر مرة. طريقة هولمز الجديدة في البحث، واكتشاف مكان الأورورا، وظهور

أتلنای جونز، ومغامرتنا المسائية، والمطاردة العنيفة في نهر التايمز. استمعت الى تلك المغامرات فاغرة فاها وبدأت الدهشة في عينيها حين أخبرتها عن السهم الذي كاد يصيب واحداً منا تغير لونها وكاد يُغمى عليها.

أسرعت بمسح وجهها بالماء فقالت: «أنا على ما يرام؛ إنها مسألة عابرة. إنها صدمة عنيفة لي أن أعرف بأنني عرضت صديقين لي لخطر رهيب».

قلت لها: «كل شيء انتهى الآن. ولم يكن الأمر مهماً الى هذا الحد، لن أخبرك بتفاصيل مزعجة أخرى، ولنتحدث في أمور أخرى. ها هو الكنز، هل هناك ما هو أفضل منه؟ حصلت على الإذن لإحضاره إليك لاعتقادي بأنك ترغبين في اللقاء النظرة الأولى عليه».

قالت: «هذه لا شك أهم رغبة لدي». لكن صوتها كان خالياً من الלהفة، كأنها افترضت أنه لا يليق بها أن تبدي لامبالاتها بغنيمة كلفت ثمناً باهظاً للحصول عليها.

قالت وهي تنحني فوق الصندوق: «يا له من صندوق جميل! هذا من صنع هندي على ما أظن؟».

– «أجل إنه من بناريس التي تشتهر بتصنيع المعادن».

قالت وهي تحاول رفعه. «وهو ثقيل جداً! يبدو أن الصندوق وحده قيم. أين هو المفتاح؟».

– «سمول رماه في مياه التايمز. سأستعين بقضيب النار لفتحه».

كان مشبك القفل سميكاً وعريضاً على هيئة تمثال بوذا الجالس. أدخلت القضيب في زاوية المشبك وأدرته الى الخارج كالرافعة،

فانفتح المشبك بقطعة عالية. رفعت غطاء الصندوق بأصابع مرتجفة، فأصابنا الدهول أنا والآنسة مورستان لأن الصندوق كان فارغاً!

لا عجب من ثقل وزنه لأنه كان مصنوعاً من طبقة معدنية بسمكة انش واحد من كل الجهات. كان ضخماً ومتيناً وجميل الصنع كأي صندوق مزخرف يصنع لكي توضع فيه الأشياء الباهظة الأثمان، لكننا لم نجد بداخله قطعة واحدة من المعادن أو جوهرة، كان فارغاً تماماً.

قالت الآنسة مورستان بهدوء: «لقد ضاع الكنز».

سمعت كلماتها وأدركت ما تعنيه وأزيع عن صدري هم كبير. لم أكن أعرف مدى القعاسة التي سببها لي كنز آغرا إلى أن تخلّصت منها أخيراً. كنت بلا شك أنانياً ومخطئاً وصديقاً خائناً، لكنني لم أكن أفكر سوى في أن الحاجز الذهبي لم يعد يفصل بيننا.

«الشكر لله!» صرخة انطلقت من أعماق قلبي. نظرت إليّ بابتسامة سريعة ومتسائلة وقالت: «لماذا تقول ذلك؟».

قلت وأنا أمسك يدها التي لم تحاول سحبها: «لأنك قريبة مني ثانية. لأنني أحبك يا ماري، حباً صادقاً ومخلصاً، لأن هذا الكنز، وهذه الثروة، منعاني من الكلام. والآن بعد زوالهما أستطيع أن أعبر لك عن مدى حبي، لذلك قلت: الشكر لله».

قالت هامسة وأنا أقربها مني: «وأنا أيضاً أقول الشكر لله». وهكذا في تلك الليلة أدركت أن الكنز لم يضع بل أننا عثرنا عليه.

- ١٢ -

قصة جوناثان
سمول الغريبة

كان الشرطي رجلاً صبوراً فلقد تركته ينتظرني فترة طويلة في
العربة، وحين عدت اليه بالصندوق الفارغ اكفهرّ وجهه وقال بكآبة:
«ضاعت المكافأة! بدون نقود لا يدفعون لنا شيئاً. عمل هذه الليلة
كان سيعود عليّ وعلى سام براون بمبلغ لا بأس به لو أن الكنز
موجود».

قلت له: «السيد تاديوس شولتورجل غني وهو سيكافئكما سواء
كان الكنز موجوداً أم لا».

لكنّه هزّ رأسه متضايقاً وقال: «هذه قضية مريبة، وهذا هوراي
السيد اتلناي جونز أيضاً».

ولقد تبين أن قوله هذا كان صحيحاً لأن ملامح المفتش خلت
من كلّ تعبير وأنا أعرض عليه الصندوق الفارغ في بايكر ستريت
كان هولمز والسجين والمفتش قد وصلوا الى البيت منذ قليل، لأن
الخطّة تغيرت بعد أن توجهوا الى مركز للشرطة لتقديم تقرير قبل
المجيء الى البيت. ظلّ صديقي جالساً بهدوئه المعهود، فيما بدا
سمول متبلّد الحسّ ورجله الخشبية مكومة بجانب رجله السليمة.
وحين تقدمت منه بالصندوق الفارغ أسند ظهره وضحك عالياً

قال اتلناي جونز غاضباً: «هذا من تدبيرك يا سمول».

قال مبتهجاً: «أجل، لقد وضعته حيث لن تقدرُوا على الوصول إليه أبداً. هذا كنزي، وإذا كنت عاجزاً عن التمتع بالغنيمة فأنني سأبذل قصارى جهدي كي لا يتمتع بها أحد سواي. قلت لكم أن لا أحد له الحق في الحصول على هذا الكنز ما عدا ثلاثة رجال موجودين في معتقل في جزيرة أندمان وأنا.

أعرف الآن أنني لن أستفيد منه وهم أيضاً لن يستفيدوا منه. كنت أتصرف لأجلي ولأجلهم، فنحن كنّا دائماً عصابة الأربعة، اعتقد أنهم كانوا سيطلبون مني أن أفعل ما فعلت وأن أرمي الكنز في مياه التايمز بدلاً من أن يأخذه هذا أو ذاك من أبناء شولتو أو مورستان. نحن لم نخدع آشميت من أجل ائراء هؤلاء. سوف تجدون الكنز حيث يوجد المفتاح وتونغا الصغير، حين أدركت أن زورقكم سيلحق بنا وضعت الغنيمة في مكان أمين. لن تحصلوا على أية روية اليوم».

ردّ اتلناي جونز بحزم: «أنت تخدعنا يا سمول. لو أنك أردت فعلاً أن تلقي بالكنز في الماء لكنت ألقيت بالصندوق وما فيه فهذا أسهل لك».

قال سمول بذكاء وهو مائل على جنبه: «يكون رميه أسهل عليّ، ويكون العثور عليه من جانبكم أسهل أيضاً. الرجل الفذ الذي تمكن من الوصول إليّ يستطيع أيضاً رفع صندوق حديدي من قاع النهر. لكن المجوهرات الآن مبعثرة على مسافة خمسة أميال تقريباً، وهذه مهمة أصعب.

تأملت كثيراً عندما أقدمت على ذلك، كدت أصاب بالجنون حين

رأيتكم تطاردوننا. لكن لا فائدة من التباكي. عرفت فيما مضى
سعادة الحياة ونحسها، وتعلّمت ألا أبكي على أمل ضاع.

قال له المفتش: «هذا موضوع خطير يا سمول. فلو ساعدت
العدالة بدلاً من إعاقة إجراءاتها كما فعلت، ستحصل على فرصة
أفضل يوم محاكمتك».

ردّ السجين السابق بغضب. «العدالة! يا لها من عدالة! لمن هذا
الكنز إذا لم يكن لنا؟

أين العدالة في أن أعطيه لأشخاص لم يكسبوه.

اسمع كيف كسبته! عشرون سنة طويلة في ذلك المستنقع وما
فيه من أمراض الحمى، أعمل طوال النهار تحت أشجار المنغروف،
وطوال الليل أنام مقيّداً بالسلاسل في أكواخ السجن القذرة، أحتمل
لسعات البعوض وأعاني من الملاريا، ومن رجال الشرطة السود
الذين كانوا يميلون لتنفيس غضبهم بالانتقام من كلّ رجل أبيض
يجدونه أمامهم. هكذا كسبت كنز أغرا.

أنت تحدثني عن العدالة، ولكنني لا أحتمل الاحساس بأن
يتمتع غيري بالكنز وأنا الذي دفعت ثمنه!

إنني أفضل أن أشنق مرات عديدة، أو أن أصاب فجأة بسهم
من سهام تونغغا، على أن أعيش في زنزانة وأعرف أن شخصاً آخر
مرتاح في قصره ينعم بالمال الذي يجب أن يكون مالي».

خلع سمول قناع الرزانة وتتابعت كلماته بسرعة وغضب، كاد
الشّرر يتطاير من عينيه، والقيد الذي يكبل يديه يحدث قعقة كلما
حرك يديه من شدة انفعاله. أدركت حين شاهدته ولست حدة

ضراوته أن الرائد شولتولم يملكه الرعب من شيء لا مبرر له أو لا يعرفه إلا عندما عرف أن السجين المخدوع كان يلاحقه.

قال هولز بهدوء: «أنت تنسى أننا لا نعرف شيئاً عن تلك الفترة، وأننا لم نسمع مشكلتك ولا نستطيع أن نحدد إلى أي مدى كانت العدالة أساساً إلى جانبك».

... «حسناً ياسيدي، لقد كنت لطيفاً معي، بالرغم من أن الفضل يعود اليك بوجود هذا القيد في يدي. لكنني لا أحمل ضغينة مما جرى، كل شيء تمّ علانية وبشكل مستقيم، وإذا كنت ترغب في سماع قصّتي فأنا لا أرفض رغبتك. ما سأقوله لك هو حقيقة أمام الله، سأقوله لك بالتفصيل، شكراً لك، ضع الكأس هنا بجانبني وأنا سأتناول الشراب حين أشعر بجفاف في حلقي.

«أنا من منطقة ورسترشاير، ولدت بالقرب من برشور. أعتقد أنك ستجد مجموعة من عائلة سمول لا تزال تسكن في تلك المنطقة الآن. فكرت مراراً في الذهاب إلى هناك، لكنني بصراحة لم أكن موضع فخر للعائلة، وأشك في أن أقربائي يفرحون لرؤيتي، كانوا مؤمنين بالله ومستقيمين في سلوكهم، وهم مزارعون متواضعون، معروفون ومحترمون من الجميع، فيما كنت أميل إلى التنقل؛ وحين بلغت الثامنة عشرة تورطت في مشكلة بسبب فتاة ولم يكن أمامي للتخلص منها سوى الالتحاق بأحدى فرق المشاة، تيرد بافرن، التي كانت في طريقها إلى الهند، وبذلك لم أعد أسبب لأهلي المزيد من المتاعب.

«لكنني أدركت أنه ليس لدي استعداد للعمل العسكري تعلّمت خطوة الإوزة وطريقة حمل بندقية «المسكيت». وفي إحدى المرات

ومن شدّة غبائي نزلت لأسبح في مياه نهر الغانج. لحسن الحظّ كان زميلي العريف جون هولدر يسبح في الوقت نفسه، وكان من أفضل السّباحين في فرقتنا. وفيما كنت أسبح هاجمني تمساح وقطع رجلي اليمنى كما يفعل الجراح الماهر، من فوق الركبة مباشرة. ومن أتر الصدمة والنزيف أصبت بالاغماء وكنت سأغرق بالطبع لو لم يمسكني هولدر ويسبح بي الى الشاطئ. أمضيت خمسة أشهر في المستشفى بعد تلك الحادثة، وحين تمكنت من الخروج برجل خشبية مربوطة الى فخذي وجدت نفسي معاقاً ومُسرّحاً من الجيش وغير صالح للقيام بأيّ عمل.

كنت، كما تستطيع أن تتوقع، سيء الحظّ في تلك الفترة، أعرج لا فائدة منه ولم أكن بعد قد بلغت العشرين، لكن تبين لي فيما بعد أن محنتي كانت في الحقيقة نعمة خفية. أحد أصدقاء الكولونيل في الكتبية التي كنت أحد جنودها، أتى الى المنطقة للعمل في زراعة شجر النيلة، وكان السيّد آيبل هوايت بحاجة الى مشرف يتولّى شؤون العمال ويحثّهم على مواصلة العمل. وسأختصر لك قصة طويلة، فالكولونيل كان مهتماً بي بعد الحادثة، وعمد الى تزكيتي بإصرار لهذه الوظيفة، وطالما أن العمل يتمّ معظم الوقت على ظهر الحصان فإن رجلي لم تكن تشكّل عائقاً مهماً، لأن القسم المتبقي من الفخذ كان كافياً للإمساك بالسرج بإحكام. كان عليّ التجوّل في المزرعة لمراقبة الرجال اثناء عملهم وأن أبلغ عن المتكاسلين. كان الأجر جيداً والمسكن مريحاً وشعرت بأنني على استعداد لتمضية بقية عمري في زراعة شجر النيلة.

«كان السيّد آيبل هوايت لطيفاً جداً، وكان يزورني أحياناً في

كوخى الصغير لنتحدث وندخّن معاً، لأن ذوي البشرة البيضاء يشعر الواحد منهم بالودّ تجاه الآخر في بلاد بعيدة وهو شعور غير موجود هنا.

«لكن الحظ لم يقف إلى جانبي فترة طويلة. كانت بلاد الهند هادئة وآمنة كما تبدو هنا «سارّي» أو «كنت»، وفجأة وبدون إنذار بدأت الاضطرابات وانطلق مائتا ألف من البائسين السود يعيشون في الأرض فساداً. أنتم بالتأكيد تعرفون ما حدث - أكثر مني فأنا لا أجيد القراءة. لا أعرف سوى ما رأيته بعيني. كانت مزرعتنا في مكان يدعى «موترا» بالقرب من حدود المقاطعات الشمالية الغربية. وفي كلّ ليلة كانت النيران المتصاعدة من البيوت الريفية تضيء السماء، وفي كلّ يوم كانت مجموعات من الأوروبيين تمرّ عبر أرضنا مع النساء والأطفال في الطريق إلى آغرا وهي أقرب مكان تتواجد فيه فرقة من الجيش. كان السيد آيل هوايت رجلاً عنيداً فأقنع نفسه بأن الأمر مبالغ فيه وأن الهدوء سيعود بنفس السرعة التي انتكست فيها الأوضاع. كان يجلس على الشرفة يتناول شراباً مسكراً ويدخن سيكار الشّيروت والمنطقة تشتعل فيها نيران العنف. وبالطبع اخترنا البقاء معه، بالإضافة إلّيّ كان هناك داوسون وزوجته وهو الذي يتولّى شؤون المحاسبة والإدارة. وفي أحد الأيام حصل الانهيار التام، كنت في مزرعة بعيدة وفي طريق العودة إلى البيت في المساء شاهدت كتلة مرمية في قعر وادٍ صغير، فنزلت لأتبيّن ما هي وصعقت حين رأيت جثة السيدة داوسون وقد قطعها مجموعة من ابن آوى ومن الكلاب البريّة وكادت تلتهمها. على مسافة غير بعيدة كان داوسون مستلقياً على وجهه وقد فارق الحياة وفي يده مسدس

فارغ، وكان أربعة من الهنود السبّاهي المجنّدين في الجيش بجواره
جثثاً هامدة، كبحت لجام حصاني وأنا حائر في أيّ اتجاه أسير؛ وفي
تلك اللحظة رأيت دخاناً كثيفاً يتصاعد من كوخ آيبل هوايت والسنة
اللّهب بدأت تشق طريقها عبر السطح. أدركت أنني لم أعد
أستطيع شيئاً من أجل صاحب العمل، وأنني سوف أضحي
بحياتي إذا تدخّلت فيما يحدث. ومن مكاني كنت أرى مئات
الأشرار السود وهم يرتدون ستراتهم الحمراء، يرقصون ويصرخون
حول البيت المشتعل. بعضهم أشار إليّ وسمعت أزيز رصاصتين
بقربي: فانطلقت مسرعاً عبر حقول الأرز ووصلت في تلك الليلة الى
داخل أسوار أغرا الآمنة.

«لكنه تبين لي فيما بعد أنه لم يكن هناك أمان فعليّ حتى في أغرا.
فالبلاذ كلّها تشبه خلية النحل، وحيث كان أفراد الجيش يلتقون في
كتائب صغيرة فقد كانوا يسيطرون فقط على المساحة التي
يستطيعون حمايتها بسلاحهم؛ خارج هذا النطاق كانوا مجرد
مشرّدين بؤساء. كانت معركة الملايين ضدّ المئات؛ والفظيع في الأمر
أن الذين يقومون بالثورة هم متمرّدون سود من مشاة وفرسان أو
في سلاح المدفعية، لقد كانوا رجالاً نحن انتقيناهم، ودرّبناهم
وعلمناهم كيفية استخدام أسلحتنا وكيف ينفخون أبواقنا. في أغرا
كانت فرقة «الغداريين» ثيرد بينغال، وبعض السيخ وفرقتان من
الفرسان وسريّة مدفعية. تم تشكيل فرقة من المتطوّعين من
المستخدمين والتجار وانضمت اليهم بالرغم من رجلي الخشبية.
خرجت فرقتنا لمواجهة الثوار في شاهغونغ وذلك في بداية شهر تموز
واستطعنا إجبارهم على التراجع، لكنّ ذخيرتنا نفدت فاضطررنا
للتراجع الى المدينة.

«لم تكن تصلنا سوى الأخبار السيئة - وهذا ليس غريباً فلو نظرتم الى الخارطة لوجدتم أن منطقتنا كانت في وسط الأماكن التي تسودها الاضطرابات. لو كنا وكنا أفضل وتبعد عنا حوالي مئة ميل شرقاً، كاوبنور أيضاً كانت تبعد المسافة نفسها جنوباً. ومن حولنا لم يكن هناك سوى التعذيب والقتل والاغتصاب.

«مساحة مدينة آغرا كبيرة، وهي تعج بالمتعصبين وعباد الشيطان المخيفين من كل جنس. وكان أفراد فرقتنا يضيعون في الأزقة الضيقة والملتوية، فاجتاز بنا قائدنا النهر وجعل من حصن آغرا القديم مقراً له. لا أعرف ما إذا كان أحدكم قد قرأ أو سمع عن هذا الحصن التاريخي، إنه مكان غريب فعلاً - ومع أنني زرت في السابق أماكن عجيبة إلا أن هذا الحصن كان الأكثر غرابة بينها. إنه هائل بمقاييسه، فالسياج الذي يطوقه يخترق مساحات كبيرة من الأرض. هناك قسم حديث نزلت فيه فرقتنا بالنساء والأطفال والمخازن وكل الأمتعة الأخرى ولم يمتلئ المكان بنا. لكن هذا القسم ليس مهماً بالنسبة لحجم القسم القديم، الذي لم يدخل إليه أحد، والذي كان متروكاً للعقارب وحشرات أم الأربعة والأربعين، تسرح في قاعاته المهجورة وممراته الملتوية ودهاليزه الطويلة التي تنعطف الى الداخل أو إلى الخارج، وكان من السهل أن يضيع أي شخص في داخلها، لأجل ذلك نادراً ما كان يجرؤ أحدنا على التجول فيها، مع أن فرقة مزودة بالمشاعل كانت تجوب هذه الدهاليز مستكشفة من حين إلى آخر.

«النهر يجري بمحاذاة الحصن، وهو يحمي واجهته، ولكن على جوانبه من الجهة الخلفية توجد أبواب كثيرة لا بد من حراستها

وهذا يشمل بالطبع الجانب القديم من الحصن والجانب الحديث منه حيث كانت تقيم فرقتنا، كان عندنا نقص في عدد الرجال، فلم يكن لدينا ما يكفي لحراسة المبنى ولإطلاق النار عند الحاجة ولذلك كان من المستحيل أن نؤمن حراسة شديدة على البوابات التي لا تحصي. حاولنا حل المشكلة بأن جعلنا وسط الحصن مركزاً رئيسياً للحرس وتركنا كل بوابة برعاية رجل أبيض مع اثنين أو ثلاثة من السكان المحليين.

«تمّ اختياري لحراسة باب صغير مهجور في الجهة الجنوبية الغربية وذلك خلال بضع ساعات أثناء الليل. كان بإمري فارسان من السيخ، وكانت لديّ أوامر بإطلاق رصاصة من بندقيتي إذا اقتضى الأمر لتصل قوة مساعدة في الحال من المركز الرئيسي، وبما أن المركز كان على بعد حوالي مائتي خطوة والمسافة بيننا كناية عن متاهة من الممرات والدهاليز، لم أكن واثقاً من أنهم سيصلون في الوقت المناسب أو أن لهم فائدة في حال تعرّضنا لهجوم فعليّ.

«كنت فخوراً بقيادة تلك الفرقة الصغيرة لأنني مجتد قليل التجربة وذو رجل خشبية أيضاً، مرت ليلتان وأنا أتولّى الحراسة مع المجندين البنجابيين. كانا طويلين، بملامح شرسة، أحدهما يدعى محمد سنج والآخر عبد الله خان، كلاهما يجيد القتال وكانا قد حملا السلاح ضد الانكليز في تشيليان ولّاه. يجيدان الانكليزية الى حدّ ما، لكنني مع ذلك لم أتمكن من مصادقتهما، كانا يفضلان الوقوف معاً والتحدث طوال الليل بلغة السيخ الغربية، كنت أقف خارج البوابة أتأمل النهر العريض ومجراه المتتوي، والأضواء

المتألثة في المدينة الكبيرة. صوت قرع الطبول، وخشخشة الطبول الصغيرة، وصرخات وصيحات الثوار السكارى من الأفيون والخمر، كل ذلك كان يذكرنا بوجود الخطر على الضفة المقابلة، وكلّ ساعتين كان الملازم المسؤول عن الحرس يقوم بجولة على كلّ المراكز ليتأكد من سلامة الجميع.

«الليلة الثالثة كانت شديدة الظلام ولم يهدأ فيها المطر. كان الوقوف في البوابة عدة ساعات مزعجاً في ذلك الطقس. حاولت مراراً أن أحمل المجندين من السيخ على تبادل الحديث معي، لكنني لم أنجح في ذلك. عند الثانية صباحاً مرّت مجموعة التفتيش وقطعت لعدة دقائق رتابة الليل. وبعد تأكدي من أن مرافقي لن يشتركا في أي حديث معي، تناولت غليونني ووضعت بندقيتي بجانبني لأشعل عود الثقاب؛ في تلك اللحظة انقضا عليّ، أحدهما استولى على بندقيتي وصوبها إلى رأسي، فيما وضع الآخر سكيناً كبيرة على رقبتني وأقسم أنه سوف يغرزها في أعماقي إذا تحركت.

«اعتقدت للوهلة الأولى أنهما من الثوار، وأن تصرفهما هو بداية لهجوم مدبّر. قلت في نفسي إذا تمكن الهنود السباهيين من الاستيلاء على البوابة سيقع الحصن في أيديهم وسيعذبون النساء والأطفال كما فعلوا في كاوبنور. ربما تعتقدون أيها السادة أنني ابتكر قضية لأحمي نفسي، لكنني أؤكد لكم أنني حين فكّرت في ذلك، ومع أنّ حدّ السكين كان يلامس رقبتني، فتحت فمي لأطلق صرخة ولو أخيرة لأنبّه الحرس الآخرين. الذي كان يمسك بي أدرك نواياي، وفيما كنت أستجمع قوتي لأصرخ همس في أذني قائلاً: «لا داعي للضجّة. الحصن في أمان. لا يوجد ثوار كلاب في هذه الجهة

من النهر». بدا الصديق واضحاً في صوته، وعرفت أنني إذا رفعت صوتي سوف أموت. حين رأيت التهديد في عينيه البنيتين، آثرت الانتظار بصمت لأعرف ماذا يريد أن مني.

«قال الأطول والأقوى، وهو الذي يدعى عبدالله خان: «اسمعي يا صاحبي، إما أن تكون الآن معنا أو تصمت إلى الأبد. الأمر شديد الخطورة ولا مجال للتردد. إما أن تكون معنا قلباً وروحاً وتقسم على صليب المسيحيين بذلك، أو أن جثتك ستلقى في الخندق، وننضم إلى اخوتنا في الجيش الثوري، لا يوجد حل وسط. ماذا تختار؟ الحياة أم الموت؟ نعطيك ثلاث دقائق لتقرر، فالوقت يمر بسرعة وكل شيء يجب أن يتم قبل مرور الدورية ثانية».

«قلت: «كيف أستطيع أن أقرر وأنت لم تقل لي ما الذي تريده مني؟ لكنني أؤكد لك مباشرة أنه إذا كان لذلك علاقة بسلامة الحصن فأنا أرفض التعامل معك، وتستطيع أن تغرز سكينك في جسدي».

«قال لي: «الأمر لا يتعلق بالحصن. نحن نطلب منك فقط أن تحقق الأمنية التي تأتي بأهل بلدك إلى هذه الأرض نطلب منك أن تصبح ثرياً. إذا اخترت أن تصبح واحداً منا الليلة سنقسم لك على هذه السكين وباليمين الثلاثي الذي لم يسبق لواحد من السيخ أن نقضه، إننا نعطيك حصتك المشروعة من الغنيمة، ربع الكنز سيصبح ملكاً لك. لا نستطيع أن نقدم ما هو أعدل من ذلك».

«سألته: «لكن ما هو هذا الكنز؟ إنني مستعد للثراء متلكما لو تقولان لي فقط كيف أتمكن من تحقيق ذلك».

«قال: «سوف تقسم إذاً بعظام والدك، وشرف والدتك، والصليب الذي تؤمن به، ألا ترفع يداً أو تتفوّه بكلمة ضدّنا، من الآن فصاعداً».

«أجبتّه: «أقسم بذلك، شرط ألا يكون الحصن معرضاً للخطر».

– «إذاً سأقسم مع رفيقي على إعطائك ربع الكنز الذي سيتم تقسيمه بالعدل علينا نحن الأربعة».

«قلت: «لا يوجد سوى ثلاثة».

– «لا، يجب أن يحصل دوست أكبر على حصّته. أستطيع أن أخبرك القصّة ونحن بانتظارهم. قف عند البوابة يا محمد سنج وأعطنا إشارة عند اقترابهم. حقيقة الأمر هي كما يلي، يا صاحبي، وأنا أخبرك لأنني أعرف أن الإفرنجي يحترم يمينه وأنت الآن موضع ثقة لو كنت هندوسياً كاذباً، وأقسمت بكلّ الآلهة في المعابد المزيّفة، كان دمك سيسيل على حد السكين وجثتك ستلقى في الماء، لكن السيخ يعرفون الانكليز، والانكليز يعرفون السيخ. استمع جيداً إذاً لما سأقوله لك.

«في المنطقة الشمالية أمير هندي (راجا) يملك ثروة كبيرة مع أن أرضه ليست شاسعة. ورث الكثير عن والده، وجمع أكثر من ذلك بنفسه، لكنه لم يكن كريماً بطبعه بل يفضل تكديس الذهب على انفاقه، حين بدأت الاضطرابات صادق الأسد والنمر في الوقت نفسه – أي السباهيين والمسؤولين الأجانب عن «الشركة». لكنه انتبه أخيراً إلى أن الوقت حان للانتقام من الرجال البيض لأنه عبر المنطقة كلّها لم يكن يسمع إلا أنباء موتهم والقضاء عليهم. وبسبب

طبيعته الحريصة وضع خطته بحيث أنه مهما تبدلت الظروف يمكنه الحصول على نصف الكنز على الأقل. ما كان فضة وذهباً أخفاه في سراديب قصره، والأحجار الكريمة الباهظة الثمن وأجمل اللآلئ التي كانت بحوزته وضعها في صندوق حديدي، وأرسل الصندوق مع خادم أمين متنكر في زي تاجر، إلى حصن آغرا حيث يجب أن يمكث الى أن تهدأ الحالة. إذا نجح الثوار يستعيد أمواله، وإذا استعادت «الشركة» نفوذها يكون قد أنقذ مجوهراته. وبعد أن قسّم مدّخراته على هذا النحو انضمّ الى السبّاهيين وهم الفريق الأقوى على حدود إمارته. وانتبه يا صاحبي، أنه بعد قرار الأمير هذا أصبحت ممتلكاته من حقّ أولئك الذين كانوا أوفياء لنضالهم الوطني.

«أما التاجر المتنكر الذي يسافر باسم أشميت فهو الآن في مدينة آغرا ويحاول الوصول الى الحصن. وقد اصطحب معه كمرافق سفر أخى في الرضاعة ويدعى دوست أكبر وهو يعرف السرّ وقد وعدنا دوست أكبر أنه سيقوده الى باب جانبيّ في الحصن، وهو بالتحديد الباب الذي نقف عنده. سيصلان بعد قليل وسأكون مع محمد سنج في انتظارهما. المكان منزوٍ ولن يعلم أحد بمجيئهما، التاجر أشميت سيموت والكنز ستنزعه علينا نحن الأربعة. ماذا تقول في ذلك يا صاحبي؟».

«حياة الانسان تبدو في ورسترشاير شيئاً عظيماً ومقدساً، لكن الأمر يختلف في مكان محاط بالدم والنيران، وحين يكون المرء قد اعتاد على ملاقات الموت في كلّ لحظة. لذلك كانت حياة أشميت أو موته مسألة بسيطة بالنسبة لي، لكن موضوع الكنز أثار اهتمامي

وأخذت أفكر فيما أستطيع أن أحققه في بلدي، وكيف سيندهش أقربائي حين يرون ذلك الصبيّ عديم النفع الذي رجع إليهم بجيوب مليئة بقطع المويدور^(*) الذهبية.

«كنت قد اتخذت قراراً، لكن عبدالله خان اعتقد أنني ما زلت متردداً فتابع يقول محاولاً اقناعي: «انتبه يا صاحبي إن القائد إذا قبض على هذا الرجل فإنه سيشنقه أو سيطلق النار عليه، وستأخذ الحكومة مجوهراته بحيث لن يستفيد منها أحد. وبما أننا نحن سنقتله لماذا لا نتولى الجزء الثاني أيضاً؟ ستكون المجوهرات إما في حوزتنا أو في خزائن «الشركة». سيحصل كل واحد منا على مبلغ يجعله غنياً ويرفع شأنه، ولن يعلم أحد بالأمر، لأننا هنا منقطعون عن الآخرين. هل هناك ما هو أفضل من ذلك؟ قل إذاً يا صاحبي، هل أنت معنا أم أن علينا أن نعتبرك عدواً؟».

«قلت له: «أنا معكم قلباً ونفساً».

«ردّ وهو يناولني بندقيتي: «حسناً، أنت ترى بأننا نثق بك، لأن وعدك مثل وعدنا لا تراجع عنه. علينا الآن فقط أن ننتظر وصول أخي والتاجر».

«سألته: «هل يعلم أخوك بما تنوون فعله؟».

ـ «الخطّة خطته، هو الذي وضعها، لنخرج الآن ونشارك محمد سنج في الحراسة».

«كنا في بداية الفصل الممطر، وفي الخارج كان المطر لا يزال

(*) المويدور عملة ذهبية برتغالية قديمة

ينهمر دون انقطاع. سُحِب دَاكِبَة وكثيفة كانت تغطي السماء وكانت الرؤية صعبة. أمام البوابة خندق مائي عميق لكن الماء كان قد جفَّ تقريباً في عدة أماكن ولم يكن اجتيازه صعباً. شعرت بأنني في موقف غريب أنتظر مع هذين البنجابيين رجلاً يجيء للملاقة حتفه.

«فجأة لمحت التمساعة طفيفة لفانوس في الجهة المقابلة من الخندق. اختفت خلف أكوام المتاريس ثم عادت لتظهر ثانية وتتقدم ببطء باتجاهنا.

«قلت: «ها هما!».

«قال عبدالله هامساً: «يجب أن توقفه كالمعتاد يا صاحبي. لا تدعه يخاف، أرسلنا للتأكد منه ونحن سوف ننفذ الباقي دون أن تفارق أنت مركز حراستك هنا. جهّز الفانوس لكي نكون متأكدين أنه الرجل المطلوب».

«كان الضوء المتأرجح يقترب، يقف قليلاً ثم يتابع طريقه، حتى تراءى لي شخصان في الجهة المقابلة من الخندق، تركتهما ينزلان فيه ويخوضان في المياه والوحل ويصعدان قليلاً باتجاه البوابة، عندئذٍ امرتهما بالتوقف، فسألتهما بصوت خافت: «من القادم؟».

«جاء الرد: «صديقان». نزع الغطاء عن الفانوس ورفعته نحوهما. كان الأول من السيخ ضخمة الجثة وله لحية سوداء طويلة تكاد تلامس حزامه. لم أر من قبل رجلاً له هذه القامة إلا في الاستعراضات. وبجانبه كان شخص قصير وممتلئ يضع عمامة كبيرة صفراء على رأسه يحمل صرة يغطيها شال. كان يرتجف من

الخوف، ويداه تنتفضان كأنه مصاب بالمalaria، وكان يلتفت ذات اليمين وذات اليسار بعينيه الصغيرتين اللامعتين كأنه فأر تجرأ وخرج من حفرة. أصابتني قشعريرة حين فكّرت بقتله، لكنني تخيلت الكنز فشعرت بأن قلبي صار صلباً كحجر صوّان. حين رأى وجهي الأبيض ارتاح قليلاً وأسرع يتقدم نحوي.

«قال بصوت لاهث: «إنني أطلب حمايتك يا صاحبي. حمايتك للتاجر المسكين أشميت. لقد قطعت منطقة راجبوتانا كي ألجأ الى حصن أغرا، وتعرضت للنهب والضرب والتعذيب لأنني صديق «الشركة». هذه ليلة مباركة لأنني أجد نفسي ثانية في أمان - أنا وما أملك».

«سألته. «ماذا تحمل في هذه الصرة؟».

«أجاب: «صندوق حديدي، يضم أشياء قليلة تخص العائلة لا قيمة لها بالنسبة للآخرين لكنني سأحزن كثيراً لو فقدتها. إنني لست متسوِّلاً، وسوف أكافئك، أيها الشاب، وأكافئ قائدك أيضاً إذا وافق على حمايتي».

«لم أعد أجروء على متابعة الحديث معه، والاستمرار في تأمل وجهه الممتلئ والخوف يزيد من صعوبة قتله ببرود. من الأفضل الاسراع في التنفيذ.

«قلت لرفيقي: «خذاه الى المركز الرئيسي للحرس». أحاط به الرجال، ومشى العملاق خلفهم ودخل الجميع البوابة المظلمة. شعرت أن الموت يطوقني ومكثت عند البوابة والفانوس في يدي.

«كنت أسمع وقع خطواتهم في الممرات الموحشة؛ وفجأة توقفوا

وسمعت شجاراً تلتته بعد قليل مجموعة ضربات ملأتني رعباً
خطوات تتقدم بسرعة نحوي وصوت لهاث رجل يركض. حملت
فانوسي باتجاه الممر الطويل ورأيت الرجل البدين يركض بسرعة
مذهلة والدم يسيل من وجهه، ووراءه مباشرة كان رجل السُيخ
الضخم بلحيته السوداء يقفز كأنه ممر ويحمل سكيناً يلتصق نصلها
في يده. كان يقترب من التاجر الذي لو تمكن من عبور البوابة الى
الخارج فانه كما اعتقد سيتمكن من انقاذ نفسه. رقبتي له، لكن
فكرة الكنز ردت إليّ القسوة والمرارة. أطلقت رصاصة بين رجليه
فيما كان يركض، فوقع وتقلب مرتين على الأرض كأنه أرنب مصاب.
وقبل أن يحاول الوقوف على رجليه انقضت عليه العملاق وغرز
سكينه مرتين في جنبه. لم يصدر عن الرجل أي أنين أو أدنى حركة
بل ظل متمدداً بسكون في المكان الذي وقع فيه. اعتقد أنه ربما كسر
رقبته أثناء وقوعه.

«انتم تلاحظون أيها السادة أنني أنفذ وعدي وأسرد عليكم كل
التفاصيل تماماً كما حدثت سواء كان ذلك في صالحني أم لا».

سكت قليلاً ليتناول بيديه المكبلتين الكأس الذي قدمه له هولمز.
اعترف أنني رأيته بأفطع صورة ليس فقط من أجل تلك الجريمة
الوحشية التي شارك في تنفيذها، لكن بسبب أسلوبه في الحديث وما
بدا فيه من وقاحة ولا مبالاة. لا أعرف ما ستكون عقوبته لكن عليه
الآن يتوقع مني أي تعاطف معه. كان شرلوك هولمز وجونز جالسين
يضع كل منهما يديه على ركبتيه ويصغي بانتباه شديد لكن
الاشمئزاز تجلّى في ملامحه. ربما يكون سمول لاحظ ذلك لأن صوته
وأسلوبه حملاً بعض الجراءة وهو يتابع حديثه.

قال: «لا شك أن كل ما حدث كان سيئاً. لكنني أودّ أن أعرف كيف كان عدد كبير من الأشخاص سيتصرفون لو أنهم كانوا مكاني. هل يرفضون حصتهم من هذه الغنيمة حين يدركون أن رقابهم ستقطع عقوبة لهم. وبالنسبة لجريمة القتل فإن حياة التاجر كانت مقابل حياتي أنا منذ دخوله الى الحصن. لو أنه تمكّن من الفرار كان الأمر كله سينكشف، وسيكون نصيبي المحاكمة العسكرية والاعدام رمياً بالرصاص؛ لأن الناس لا يكونون متسامحين في أوقات مماثلة».

قال له هولز رغبة في الاختصار: «تابع قصتك».

«حسناً؛ حملناه معاً عبد الله وأكبر وأنا، وكان وزنه ثقيلاً مع أن قامته قصيرة، تركنا محمد سنج عند البوابة للحراسة. وحملناه الى مكان كان الرجال السُّيخ قد أعدّوه مسبقاً. مشينا في دهليز متعرج قادنا الى قاعة كبيرة فارغة جدرانها المشيدة بالآجر آخذة في الانهيار. كانت أرض القاعة غائرة في احدى الزوايا كأنها قبر طبيعي. وتركنا جثة آشميت في تلك الحفرة بعد أن غطيناها بحجارة الآجر. ثم عدنا ثانية الى مكان الكنز.

«كان الصندوق على الأرض حيث تركه آشميت عندما تعرّض للهجوم الأول. الصندوق هو نفسه الذي ترونه الآن على الطاولة. بجانب المسكة المحفورة كان مفتاح يتدلّى بشريط حريري؛ فتحنا الصندوق ورأينا في ضوء الفانوس مجموعة من المجوهرات كتلك التي كنت أقرأ عنها أو أحلم بها وأنا صبي صغير في الكاتالوغ؛ لمعناها يبهّر الأبصار، وبعد أن متّعنا أعيننا بهذا المشهد الرائع أفرغنا الصندوق ودوّنا المحتويات في لائحة. كانت هناك مئة وثلاث

وأربعون ماسة من أفضل صنف بصفائها وبريقها، وبينها واحدة أطلق عليها، على ما أظنّ، اسم: «المغوليّ العظيم»، ويقال أنها الماسة الثانية من حيث الحجم في العالم وبالإضافة الى ذلك سبع وتسعون زمردة في غاية الروعة، ومئة وسبعون ياقوتة بعضها كان صغير الحجم؛ وأربعون حجراً من العقيق الأحمر، ومئتان وعشرون من الياقوت الأزرق، وواحد وستون من اليشب، وكمية كبيرة من حجر البريل الأخضر والجزع وعين الهرّ والفيروز وغيرها من الأحجار الكريمة، التي لم أكن أعرف أسماءها في ذلك الحين، مع أنني صرت حسن الاطلاع في هذا المجال. وبالإضافة الى كلّ هذا كانت في الصندوق حوالي ثلاثمئة من أفضل اللآلئ، اثنتا عشرة من بينها كانت تزيّن تاجاً ذهبياً صغيراً وبالمناسبة هذه المجموعة الأخيرة من اللآلئ أخذت من الصندوق ولم تكن موجودة فيه حين استرجعته.

«بعد أن فرغنا من احصاء ثروتنا أعدنا المجوهرات الى داخل الصندوق، الذي حملناه الى البوابة كي نريه لمحمد سنج. وقمنا نحن الأربعة بتجديد عهدنا بأن يساعد الواحد منا الآخر وأن يكون مخلصاً في اخفاء السرّ. اتفقنا على وضع الصندوق في مكان أمين الى ان يستتبّ الأمن في البلاد، ثم نقسمه بالتساوي بيننا. لم يكن هناك مبرر لاقتسامه مباشرة، لأن اكتشاف مجوهرات بهذه القيمة مع واحد منا يثير الشكوك، وليس هناك مكان منزوٍ في القسم الحديث من الحصن يستطيع واحدنا اخفاء حصّته فيه. لذلك عدنا بالصندوق الى القاعة التي وضعنا فيها الجثة، وعمدنا الى انتزاع عدة حجارة من جدار لا يزال متماسكاً الى حدّ ما ووضعنا الصندوق داخل التجويف. انتبهنا جيداً للمكان، وفي اليوم التالي

رسمت أربع خرائط ووضعت أسماؤنا نحن الأربعة على كل منها، لأننا أقسمنا بأن يعمل واحدنا من أجل المجموع وأن لا يحاول الاستفادة من أية فرصة تتاح له، هذا العهد أستطيع أن أضع يدي الآن على قلبي وأقسم بأنني كنت دائماً وفياً له.

«حسنأً، لا داعي أيها السادة لكي أسرد لكم ما حدث من اضطرابات في الهند. بعد أن سيطر ويلسون على دلهي وتمكّن السيد كولن من تحرير لوكتاو، بدأت تصل إلى المنطقة وحدات جديدة من الجيش، وبصعوبة تمكّن «نانا صاحب» من الوصول إلى الحدود بسلام، ومجموعة نقلت جواً بإمرة الكولونيل غريثد إلى أغرا وطردت الثوار منها. أخذ الهدوء يعود تدريجياً إلى البلاد وبدأنا نحن الأربعة نتأمل أن الوقت سيحين قريباً لكي يأخذ كلّ منا حصته وينعم بها في أمان. لكنّ أحلامنا كلّها زالت عندما تمّ القبض علينا بتهمة قتل آشميت.

«وهذا ما حدث: عندما سلّم الراجا مجوهراته إلى آشميت فإنه فعل ذلك لأنه يثق به. لكنه مع ذلك كان ميّالاً إلى الشكّ كسائر سكان تلك المنطقة الشرقية، فعمد إلى إرسال خادم له وموضع ثقته التامة لكي يتتبع آشميت ويتجسس عليه. وقد أمره الراجا بأن لا يتركه مطلقاً يغيب عن ناظريه، فتتبع خطواته وكأنه ظلّه. كان يسير خلفه في تلك الليلة ورآه يدخل بوابة الحصن. اعتقد في البداية أنه لجأ إلى الحصن، وتقدّم هذا الخادم بدوره في اليوم التالي بطلب إلى المسؤولين للسماح له بالبقاء في داخل الحصن؛ لكنه لم يعثر على آشميت. ارتاب الأمر وأخبر أحد الضباط باختفاء آشميت، الذي نقل الأمر بدوره إلى القائد. بدأت عملية بحث سريعة، وتم العثور

على الجثة. لذلك حين اعتقدنا أن الخطر زال، أُلقي القبض علينا نحن الأربعة وبدأ التحقيق معنا بتهمة القتل - ثلاثة منا لأننا كنا واقفين عند البوابة تلك الليلة، والرابع لأنه معروف بأنه كان يرافق القاتل. ولم يشر أحد الى المجوهرات أثناء محاكمتنا، لأن الراجا عُزل عن منصبه وطرد من البلاد. ولم يكن أحد غيره يعرف شيئاً عنها. أمّا الجريمة فكانت واضحة وكنا جميعاً مشتركين فيها. الرجال السُّيخ الثلاثة حكم عليهم بالأشغال الشاقة مدى الحياة، وحُكم عليّ بالموت، لكنّ عقوبتي خُففت فيما بعد الى عقوبة الآخرين.

«كان وضعنا صعباً للغاية، أرجلنا مكبّلة والاحتمال ضئيل جداً في أن نتمكن من الخروج ثانية، وكلّ واحد منا يحتفظ في أعماقه بسرّ كان سيغيّر مجرى حياته لو أن الأمور سارت على ما يرام. كان من الصعب علينا أن نحتمل رفسات وصفعات الحراس الحقيرين، وأن يكون الأرض طعامنا والماء شرابنا، وتلك الثروة كانت موجودة في الخارج تنتظر من يسعد بها. كدت أصاب بالجنون، لكنني تماكنت نفسي وأخذت أنتظر الفرصة الملائمة.

«وأخيراً تصوّرت أن الفرصة سنحت فعلاً. تمّ نقلي من أغرا الى مدارس ومنها الى جزيرة بلير في جزر أندمان. كان عدد الموقوفين البيض قليلاً في تلك المستوطنة، ولأنني كنت حسن السلوك صرت خلال فترة قصيرة رجلاً مميّزاً. أعطوني كوخاً في هوب تاون، موقع صغير على منحدر جبل هارييت، ولم يكن أحد يضايقني في معظم الأحيان. كان المكان موحشاً ومليئاً بأمراض الحمّى، وخلف حدود تلك الفسحة في الغابة كانت المنطقة تعجّ بالمتوحشين الذين كانوا على استعداد لقتل أيّ منا بأسهمهم المسمومة حين يتسنى لهم

ذلك.. كنا نحفر الخنادق ونزرع البام (نوع من البطاطا) ونقوم
بعدة أعمال أخرى بحيث نقضي يومنا كله في العمل؛ وفي المساء
أيضاً لم يكن لدينا وقت طويل للراحة، ومن بين عدة أمور أخرى
تعلمت تحضير العقاقير مع الطبيب الجراح، واحتفظت بجزء من
تلك المعلومات؛ كنت طوال الوقت أبحث عن فرصة ملائمة للهرب،
لكن الجزيرة كانت على بعد أميال من أية أرض أخرى، وتلك البحار
لا رياح فيها تقريباً. لذلك كان الهرب في غاية الصعوبة.

«كان الدكتور سومرتن شاباً مرحاً ومقامراً، وكان يجمع عدداً
من الضباط الشباب في غرفته كل مساء للعب القمار. والعيادة،
حيث كنت أحضر العقاقير كانت ملاصقة لغرفة الجلوس وبينهما
نافذة صغيرة؛ وكنت عند شعوري بالوحدة أطفئ المصباح واقف
عند النافذة أستمع الى حديثهم وأراقبهم وهم يلعبون. وكنت مولعاً
بلعب الورق أيضاً وأجد متعة في مراقبة الآخرين وكأنني أشارك في
اللعبة معهم. كان هناك الرائد شولتو، والنقيب مورستان، والملازم
بروملي براون الذين كانوا يتولون قيادة الجيش هناك، بالإضافة الى
الطبيب واثنين أو ثلاثة من المسؤولين عن السجن، وكانوا بارعين
يميلون الى اللعبة المضمونة. مجموعة صغيرة تتسم بالحميمية
وتختار دائماً البعد عن الأنظار.

«لكن ما لفت نظري أن الجنود كانوا يخسرون دائماً والموظفين
المدنيين يربحون. أنا لا أقول انهم كانوا يغشون، لكنهم كانوا
متمرسين في لعب الورق منذ مجيئهم الى الجزر، ويعرفون جيداً
طريقة لعب كل واحد منهم، أما الجنود فكانوا يلعبون لتمضية
الوقت ولا يهتمون كثيراً بالربح. وليلة بعد ليلة كان هؤلاء يزدادون
فقراً، ويزداد بالتالي اصرارهم على متابعة اللعب. والرائد شولتو كان

وضعه سيئاً، فهو كان يلعب في البداية بالأوراق النقدية والقطع الذهبية، ثم أخذ يلعب بالكمبيالات وبمبالغ كبيرة. كان يربح أحياناً ويزداد ولعاً باللعب لكن الحظ ما يلبث أن يعاكسه ويعود الى الخسارة طوال النهار كان يتجول في أنحاء المعتقل يصرخ بغضب، ثم أخذ يشرب الكحول بكثرة مما ترك أثراً سيئاً على صحته

«وذات ليلة كانت خسارته أكبر من الليالي الأخرى. كنت في كوخى حين رأيته والنقيب مورستان في طريقهما الى مسكنهما. كانا صديقين حميمين لا يفترقان أبداً. والرائد كان يتكلم عن خسارته، فقال لصديقه وهما يمران أمام الكوخ: «انتهى كل شيء يا مورستان. أنا مضطر لتقديم استقالتي، صرت رجلاً فقيراً».

«قال الآخر وهو يريّث على كتفه: «هذا هراء، يا صديقي! عرفت بدوري فترة صعبة ولكن...» هذا كل ما سمعته، لكنه كان كافياً لكي أبدأ بالتفكير في خطة.

«بعد ذلك بيومين شاهدت الرائد شولتو يتمشى على الشاطئ فاستفدت من الفرصة وتقدمت منه لأتحدث معه. قلت له: «أتمنى لو تساعدني أيها الرائد شولتو».

«قال وهو يحمل سيجار الشيروت في يده: «حسناً يا سمول ماذا تريد؟».

«قلت: «أردت أن أسألك يا سيدي عن الشخص المناسب الذي أستطيع أن أسلمه كنزاً دفيناً، فأنا أعرف مكان كنز يساوي نصف مليون جنيه، والأفضل أن أقوم بتسليمه الى السلطات المختصة، ربما يخفف ذلك من عقوبتي.

«قال بلهفة وهو ينظر إليّ بحدّة ليتبين ما إذا كنت أمارحه:
«نصف مليون يا سمول؟».

– «أجل يا سيدي – مجوهرات ولآلىء، والغريب أن صاحبه
الفعلي خارج على القانون ولا يستطيع المطالبة به، فهو بالتالي ملك
لمن يأخذه».

– «الحكومة يا سمول» وتابع متلعثماً: «الحكومة». لكنه قال ذلك
بنبرة مترددة فأيقنت أنه وقع تحت تأثيري.

«سألته بهدوء. «أتعتقد يا سيدي إذاً أنني يجب أن أدلي بما
لدي من معلومات للواء القائد؟».

– «حسناً، حسناً، يجب ألا تستعجل في القيام بأي عمل قد تندم
عليه فيما بعد، أخبرني قصة هذا الكنز يا سمول، أعطني
الوقائع».

«أخبرته القصة بكاملها مع بعض التعديل بحيث لا يتمكن من
التعرّف على الأماكن، وحين انتهيت رأيته يقف جامداً مستغرقاً في
التفكير وأدركت من ارتعاش شفته أنه يعاني من صراع داخلي.

«قال لي أخيراً: «هذه مسألة في غاية الأهمية يا سمول. لا تتفوه
بكلمة واحدة أمام أي شخص آخر، وسأقابلك مرة ثانية قريباً».
«وبعد يومين أتى الى كوخى مع رفيقه النقيب مورستان في عتمة
الليل.

«قال لي. «أريدك أن تخبر النقيب مورستان بقصتك يا سمول».
«فأعدت رواية الأحداث كما أطلعته عليها من قبل.

«قال لصديقه: «تبدو صحيحة وجديرة بالمتابعة، أليس كذلك؟».

«أحنى النقيب مورستان رأسه بالموافقة، فأضاف الرائد
«اسمعني يا سمول. لقد تحدثت مع صديقي حول الأمر؛ وتوصلنا
الى أن سرك هذا لا يخص الحكومة، بل هو أمر شخصي، وأنت
بالطبع تتمتع بالحق في التصرف به كما يحلو لك. والسؤال الآن هو،
ما الثمن الذي تطلبه؟ ربما نرغب في اتخاذ موقف إذا استطعنا
الاتفاق على الشروط».

«حاول أن يتحدث بأسلوب بارد وبلا مبالاة، لكن الانفعال
والطمع كانا واضحين في نظريته.

«أجبتة، محاولاً بدوري أن أبدو هادئاً لكنني كنت أخفي انفعالي
مثله: «بالنسبة لذلك أيها السيدان، لا يوجد أي رجل في مثل وضعي
إلا أن يعقد صفقة واحدة: أريدكما أن تساعداني على استعادة
حريتي، ومساعدة رفاقي الثلاثة كذلك. عندئذ تصبحان شريكين لنا
ونعطيكما حصة خامسة تقسمانها فيما بينكما».

«قال: «حصة خامسة؟ ليس هذا العرض مغرياً».

«قلت له: «سينال كل واحد منكما خمسين ألفاً».

- «لكن كيف سنتمكن من مساعدتكم على الفرار؟ أنت تعلم
جيداً أن هذا مستحيل».

«أجبتة: «على الاطلاق. لقد فكرت في الأمر بدقة. إن الصعوبة
تكن في أننا عاجزون عن الحصول على مركب ملائم للرحلة، وعن
مؤونة تكفيها للوقت المطلوب. هناك الكثير من اليخوت الصغيرة
والمراكب الشراعية في كلكتا أو مدارس وهي تفي بالغرض إذا

استأجرتما لنا واحداً نستقله أثناء الليل وتنزل في أي مكان على الساحل الهندي؛ هذا هو شرطنا لعقد اتفاق معكما.

قال «ولكن ماذا لو نساعدك أنت فقط».

أجبتة: «نحن الأربعة أو لا أحد، هذا ما أقسمنا عليه، الأربعة يجب أن يكونوا دائماً معاً».

قال لصديقه: «أترى يا مورستان، سمول هذا رجل مخلص، إنه لا يتهرب من أصدقائه وأعتقد أننا نستطيع أن نثق به».

أجابته الآخر: «هذه القضية بشعة، لكن المال كما تقول سينقذ رتبة كل منا ويبقى لنا فائض منه».

قال الرائد: «حسناً يا سمول، سنحاول اللقاء بكم، لكن يجب أن نتأكد أولاً من صحة روايتك. أخبرني عن مكان الكنز وسوف أطلب الإذن للذهاب الى الهند في المركب الذي يأتي كل شهر الى الجزيرة، وذلك من أجل التحقق من الأمر».

«قلت له وأنا أزداد برودة فيما هو يزداد اندفاعاً: «ليس بهذه السرعة، يجب أن أحصل على موافقة رفاقي الثلاثة. فلقد قلت لك إما أن نكون نحن الأربعة أو لا أحد».

قال مقاطعاً: «هذا هراء! ما دخل ثلاثة من السود في اتفاقنا؟».

قلت له. «سواء كان لونهم أسود أم أزرق، إنهم معي وسنبقى جميعاً معاً».

«وانتهى الأمر في اجتماعٍ ثانٍ تم بحضور محمد سنج وعبد الله خان ودوست أكبر. تحدثنا في الموضوع وتوصلنا أخيراً الى اتفاق.

كان علينا أن نزود كلاً من الضابطين بخريطة حول مكان وجود الكنز في حصن آغرا، ونشير بعلامة الى مكان الصندوق في الحائط. وسيذهب الرائد شولتو الى الهند ليتأكد من روايتنا فإذا عثر على الصندوق يتركه في مكانه ثم يرسل الى الجزيرة يخبأ صغيراً مزوداً بالمؤن الضرورية للرحلة، وهذا سيرسو قبالة جزيرة ركلاند وعلينا نحن أن نصل اليه؛ والرائد يعود لممارسة عمله؛ وسيطلب النقيب مورستان الإذن بالسفر وسيقابلنا في آغرا، وهناك نقسم الكنز ونعطيه حصته وحصّة الرائد شولتو. وكان ختام الاتفاق بأن أقسم الجميع على الوفاء والاخلاص له. سهرت تلك الليلة حتى الصباح وأنا أرسم الخارطتين ودوّنت على كلّ واحدة منهما أسماءنا نحن الأربعة أي عبدالله واكبر ومحمد وأنا.

«لا شك أنكم تعبتم أيها السادة من هذه القصة الطويلة، وأعرف أن صديقي جونز ينتظر بفارغ الصبر وضعي في زنزانة. سأحاول أن أختصر قدر المستطاع. ذهب النذل شولتو الى الهند لكنه لم يعد ثانية. وبعد فترة قصيرة دلّني النقيب مورستان على اسمه بين مجموعة من المسافرين الى انكلترا على متن باخرة للبريد وقال لي أنه استقال من الخدمة العسكرية لأن عمه توفي وترك له ثروة. تضايقنا جميعاً من تصرّفه الدنيء، وفي أسرع فرصة ذهب مورستان الى آغرا ووجد، كما توقعنا، أن الكنز مأخوذ فعلاً. ذلك الوغد سرقه كله دون أن يفي بشرط واحد من الشروط التي بعناه السر من أجلها. ومنذ ذلك الوقت أخذت أعيش على أمل الانتقام منه؛ كنت أفكر فيه نهائياً وأخطط له ليلاً. وأصبح هذا الانتقام رغبة طاغية ومسيطرة في أعماقي. لم أكن أهتم بالقانون - ولا حتى بالمشنقة، ولم يكن يستحوذ على تفكيري سوى الهروب واللاحق

بشولتو ووضع يديّ حول رقبتة، حتى كنز آغرا بدا أمراً صغيراً
بالنسبة لعملية شولتو.

«لقد سبق لي أن قرّرت القيام بأمور كثيرة ولم أترك أمراً واحداً
لم أنفذه. لكن سنوات طويلة ومتعبة مضت قبل مجيء الوقت
المناسب لكي أنتقم. قلت لكم بأنني تعلمت بعض الشؤون الطبية،
وذات يوم كان فيه الدكتور سومرتن مريضاً بالحمى، اصطحب
عدد من الموقوفين رجلاً صغيراً من سكان الجزيرة عثروا عليه في
الغابة، كان مريضاً جداً وقد قصد مكاناً بعيداً عن قومه كي يموت
فيه. قررت مساعدته، مع أنه كان يثير الاشتمئزاز كأفعى صغيرة؛
وبعد شهرين استعاد صحته وتمكّن من المشي ثانية.. كان شديد
الاعجاب بي، ولم يرض بسهولة العودة الى الأدغال، وظلّ من حين
لآخر يأتي الى الكوخ، تعلمت منه بعض العبارات في لغته وهذا ما
جعله يزداد اعجاباً بي.

«تونغا - هذا هو اسمه - كان مراكبياً ماهراً ويملك زورقاً واسعاً
وكبيراً، وحين وجدته مخلصاً لي ومستعداً للقيام بأي عمل يخدمني
فيه، قررت الهرب بمساعدته. أخبرته بخطتي: عليه أن يأتي بزورقه
ليلاً الى رصيف قديم غير مراقب وهناك سيجدني في انتظاره، ونبهته
بأن يحضر عدداً من ثمار اليقطين المليئة بمياه الشرب والكثير من
البام وجوز الهند والبطاطا الحلوة.

«كان تونغّا الصغير وفياً ومخلصاً. ولم يسبق لانسان أن عرف
رفيقاً بإخلاصه في الليلة المحددة كان عند الرصيف في زورقه. لكن
بالصدفة كان هناك أحد الحراس وكان شرساً لا يترك فرصة إلا
ويتعمد فيها إهانتني وجرح مشاعري. وكنت أنوي الانتقام منه

والآن جاءت الفرصة المناسبة، وكان القدر وضعه في طريقي كي أنفذ ما نويت عليه قبل مغادرة الجزيرة. كان يقف عند الشاطئ وقد أدار ظهره لي وبندقيته على كتفه. بحثت عن حجر أضربه به على رأسه لكنني لم أجد.

«ثم خطرت في بالي فكرة غريبة وعرفت كيف أجد سلاحاً، جلست في الظلام وأخذت أفكّ رباط رجلي الخشبية، وقفزت ثلاث مرات فوصلت اليه، حمل البندقية يريد إطلاق النار لكنني عاجلته بضربة قوية على رأسه قضت عليه. ووقعت معه لأنني لم أعد قادراً على المحافظة على توازني. وحين تمكنت من الوقوف كان لا يزال مستلقياً بلا حراك. نزلت الى المركب وبعد ساعة كنا قد قطعنا مسافة في البحر. أحضر تونغاً معه كل ممتلكاته من أسلحة وآلهة، ومن بين أشياء عديدة كان يحمل حربة من الخيزران، وحصيرة من أوراق جوز الهند استخدمتها كشراع. مرّت عشرة أيام ونحن في عرض البحر ننتظر مرور إحدى السفن الكبرى وفي اليوم الحادي عشر استقلينا سفينة تجارية كانت متوجهة من سنغافورة الى جدّة وعلى متنها حشد من الحجّاج الماليزيين. تمكنت مع طونغاً من الجلوس بين الحجّاج الذين كانوا يتمتعون بميزة: انهم يتركون الآخر وشأنه ولا يطرحون عليه أسئلة.

«حسنأً، لو أخبركم بالمغامرات التي خضتها مع صديقي الصغير لن تكونوا شاكرين لأنكم ستسمعونني حتى شروق الشمس. انتقلنا من مكان لآخر، وكانت هناك دائماً عوائق تمنعنا من الوصول الى لندن. وطوال الوقت لم أنس هدي، كنت أحلم بشولتو ليلاً، قتلته مئات المرات في نومي، وأخيراً ومنذ حوالي ثلاث

أو أربع سنوات وصلنا الى انكلترا . لم أجد صعوبة كبيرة في التوصل الى مكان إقامة شولتو وقمت بتحريات لمعرفة ما إذا كان قد باع المجوهرات أم ما زال يحتفظ بها . وتقرّبت من أحد المستخدمين في بيته ليساعدني - لكنني لن أذكر اسمه فأنا لا أريد أن أورط شخصاً آخر معي - وعرفت بعد فترة أن المجوهرات لا تزال موجودة . ثم حاولت الوصول اليه عدة مرات، لكنه كان شديد الحذر يحرسه ملاكمان ومعه في البيت ولداه وخادمه الهندي خيتمتغار .

«وعرفت في أحد الأيام أنه في النزح الأخير . أسرعته الى حديقة المنزل وكنت خائفاً أن يفلت من قبضتي هذه المرة؛ رأيته من وراء النافذة مستلقياً على سريريه يحيط به ولداه . كنت سأجازف بالدخول وأهاجم الثلاثة معاً، لكنني رأيت فكه يتدلى وعرفت أنه فارق الحياة . عدت الى غرفته تلك الليلة وفتشت في أوراقه أبحث عن اشارة مدونة عن موقع المجوهرات، لكنني لم أجد شيئاً، فعدت أدراجي يملأني الحقد والغضب . وقبل مغادرة الغرفة تخيلت أنني إذا التقيت برفاقي السيخ ثانية فإنهم يفضلون لو أنني أترك دليلاً بإسمنا جميعاً على كراهيتنا له ؛ لذلك دوّنت توقيع الأربعة تماماً كما هو على الخارطة وعلقته على صدره . كان من الصعب عليّ أن أراه يدفن بدون ذكرى من الرجال الذين سرقهم وخانهم .

«كنت في تلك الفترة أكسب بعض المال من عرض تونغ المسكين في الأسواق والساحات وتقديمه للناس على أنه متوحش أسود، وهو كان يأكل أمامهم اللحم النيء ويرقص رقصة الحرب: وكنا في آخر النهار تجمع كمية لا بأس بها من النقود . كنت لا أزال أتلقي الأخبار من بونديتشيري لودج ومرت بضع سنوات بدون أي جديد،

سوى أن الولدين كانا يبحثان عن الكنز. وأخيراً حدث ما طال انتظاره، فقد تمّ العثور على الكنز. كان مخبأً في القسم الأعلى من البيت في المختبر الكيميائي للسيد برتلوميو شولتو. أتيت الى البيت مباشرة وألقيت نظرة على المكان، لكنني لم أستطع الصعود الى العلية برجلي الخشبية. عرفت لاحقاً بوجود باب يفضي الى السطح وأن السيد شولتو يتناول عشاءه في ساعة معينة. فقررت تنفيذ الأمر بمساعدة تونغنا، واصطحبته معي في المرة الثانية مع حبل طويل لفّه حول خصره. تسلّق الجدار كأنه قطعة، وتمكن بسرعة من الوصول الى الغرفة. لكن برتلوميو شولتو كان لا يزال في غرفته وهذا من سوء حظّه. اعتقد تونغنا أنه تصرف بذكاء عندما قتله لأنني حين وصلت الى الغرفة وجدته يختال متباهياً كأنه طاووس. وقد أصيب بذهول حين هجمت عليه بطرف الحبل وأنا ألعنه وألقبه بالقزم المتعطش للدماء. تناولت منه صندوق الكنز وأنزلته من النافذة، ثم نزلت بدوري بعد أن تركت توقيع الأربعة على الطاولة للدلالة على أن المجوهرات عادت أخيراً لمن يستحقّها. ثم رفع تونغنا الحبل وأغلق النافذة وعاد من حيث أتى.

«لا أعرف ما إذا كان هناك شيء آخر تودّون معرفته. كنت قد سمعت أحد البحارة يتحدث عن سرعة زورق سميث البخاريّ الأورورا، فقلت أنه يساعدنا في هربنا. اتفقت مع سميث ووعدته بأن أعطيه مبلغاً كبيراً إذا أوصلنا الى سفينتنا. أحسّ على الأرجح بوجود خلل ما لكنّه لم يسأل وأنا لم أشركه في السر، هذه هي الحقيقة، وأنا لم أخبركم بها لتسليتكم، لأنكم أنتم أفضلتم مخططي، لكنني أخبركم بها لأنني اعتقد أن أفضل دفاع أقوم به عن نفسي هو ألا أخفي شيئاً وأترك العالم كلّه يعرف كم أساء الرائد

شولتو معاملتي وكم أنا بريء من موت ابنه».

قال هولز: «هذه رواية ملفقة، نهاية ملائمة لقضية مثيرة للغاية، لم أجد في القسم الأخير من القصة أية معلومات جديدة لم أكن أعرفها سوى أنك أحضرت الحبل معك. هذا لم أكن أعرفه. بالمناسبة اعتقدت أن تونغافقد جميع أسهمه، لكنه أطلق علينا واحداً منها ونحن في الزورق».

– «إنه بالفعل فقدها جميعاً ما عدا سهماً واحداً كان لا يزال في قسبة النفخ».

قال هولز: «آه، بالطبع، لم أفكر في ذلك».

سأله الموقوف بلطف: «هل ترغب في أن أوضح لك أية مسألة؟».

رد هولز: «لا أعتقد ذلك، شكراً لك».

قال أتلناي جونز: «حسناً يا هولز، نعرف جميعاً أنك خبير في الجريمة وتستحق معاملة خاصة، لكن الواجب هو الواجب، وأنا قد ذهبت بعيداً في تنفيذ ما طلبته مني أنت وصديقك. ولن أرتاح قبل أن أتأكد من وضع صاحبنا هذا في سجن مقفل. العربة لا تزال في انتظارنا، وهناك شرطيان ينتظران أيضاً في الطابق السفلي. أنا شديد الامتنان لمساعدتك وسوف تستدعي بالتأكيد للإدلاء بشهادتك في المحكمة. عمتما مساءً».

قال جوناثان سمول: «عمتما مساءً أيها السيدان».

وأشار عليه جونز بأن يخرج قبله وهما يغادران الغرفة وقال: «سأكون حذراً كي لا أتلقي ضربة من رجلك الخشبية، كما فعلت مع ذلك الحارس في جزر أندمان».

قلت بعد خروجهما، وفيما كنت أدخن مع هولمز: «حسناً، ها قد انتهت قصتنا، وأعتقد أنها ربما تكون آخر ما يتسنى لي من خلاله أن أتمعن في دراسة أسلوبك، فالآنسة مورستان قد شرفتني بموافقتها على طلبي للزواج منها».

همهم بكآبة ساخرة وقال: «كنت أخاف ذلك، إنني فعلاً لا أستطيع أن أهنتك».

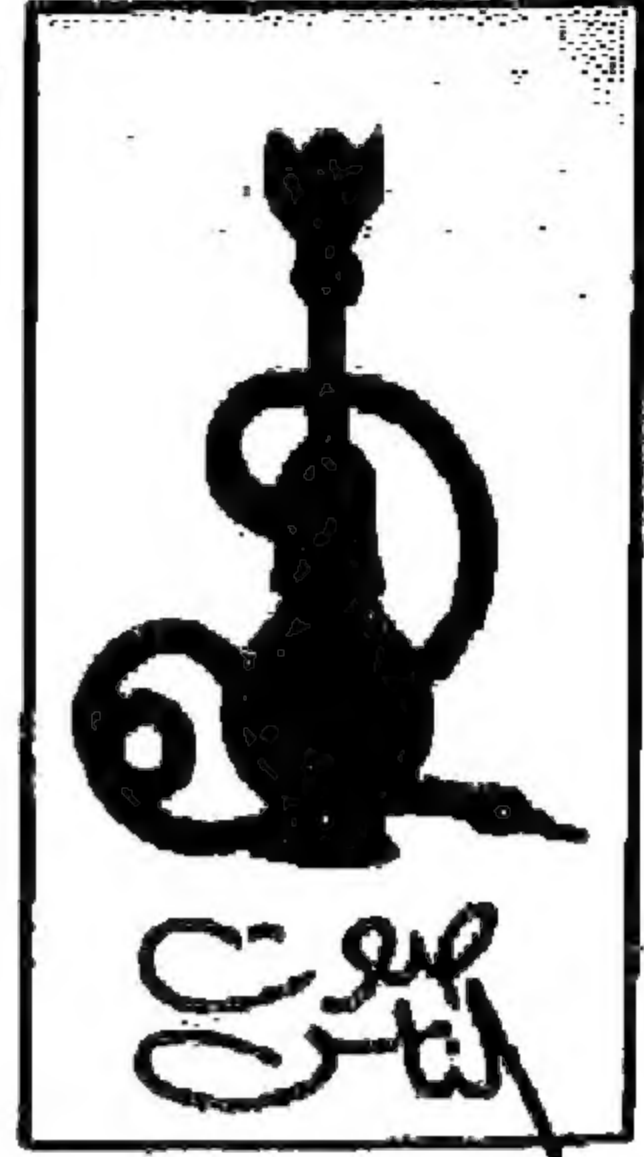
شعرت بأنه جرحني وسألته: «هل لديك أي سبب يجعلك مستاء من اختياري؟».

ـ «على الإطلاق. أعتقد أنها من أجمل الشابات اللواتي التقيت بهن، وقد تكون مفيدة للغاية في عمل كالذي قمنا به. يبدو أنها موهوبة في هذا المجال، وهذا يستدل من طريقتها في المحافظة على خطة حصن آغرا واختيارها لها من بين سائر أوراق والدها. لكن الحب هو نزعة عاطفية، وكل ما هو عاطفي يتناقض مع التفكير المنطقي السليم الذي أضعه فوق كل اعتبار. أنا لن أتزوج أبداً، إلا إذا انحرفت عن قدرتي على التفكير».

قلت له ضاحكاً: «أعتقد أن قدرتي على التفكير سوف تتجاوز هذه المحنة. لكن تبدو متعباً للغاية».

ـ «أجل، أنا أعاني من ردّة الفعل وسأكون مترهلاً مثل السجادة لمدة أسبوع».

قلت له: «غريبة هذه الحالة، التي لو وصفها رجل آخر لقلت عنه أنه كسول، لكنها عندك تتعاقب مع نوبات رائعة من النشاط والحيوية».



بعد اختفاء والدها في ظروف غامضة، كانت الأتيسة مورستان
تتلقى سنوياً هدية سرّية هي عبارة عن لؤلؤة نادرة ونفيسة.
وقد تبين لها فيما بعد أن هناك لغزاً كبيراً وراء مؤامرة تحيط
بكنوز «الغراء» قد تهدد حياتها.

استنجدت الأتيسة مورستان بخدمات شارلوك هولمز وزميله
واتسون للكشف عن هذا اللغز الذي ازداد تعقيداً كلما
توسع التحقيق حتى انتهى الأمر إلى البحث عن كنز هندي
وعن القاتل الذي يوقع جريمته دائماً بكلمة «عصابة الأربعة».



1855131498